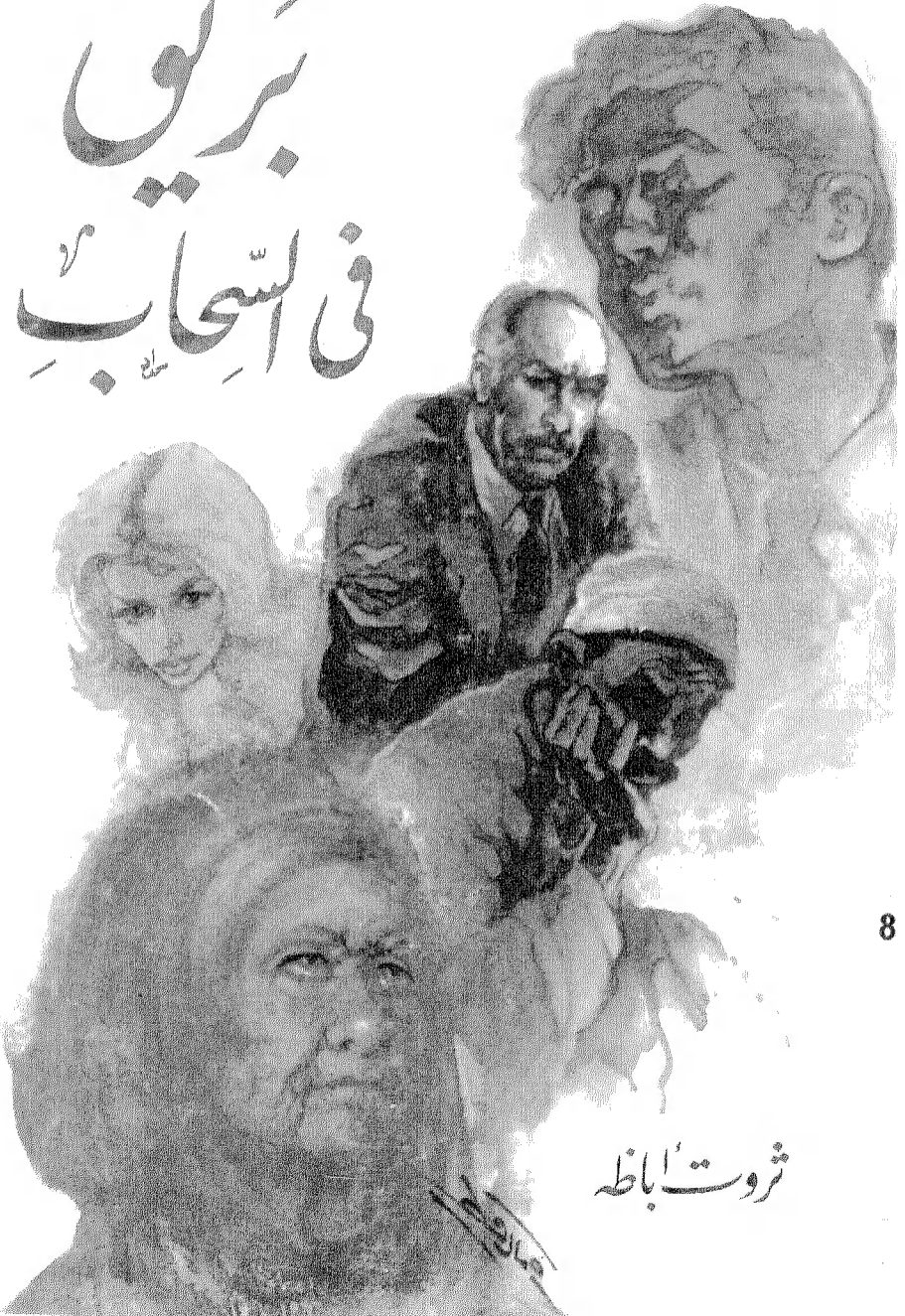


برقی فی السحاب



ثروت باط

بريق في السحاب

مطبعة خان بكينة لاهور

سَـبِـرُ قِي فِي السَّحَابِ

رواية بقلم

ثروت أباظة

الطبعة
مكتبة مصر
٣ شارع كامل مدني - الفيحاء

دار مصر للطباعة

سميد جودة السعار وشركاه

١

استيقظ الصباح في قرية الحمايدة ليجد بيت الحاج حامد
بركات قد صبحا من نومه ، وراح الحاج يتوضأ ليصلي الفجر ،
وراحت الحاجة توحيدة تعد الإفطار لزوجها بعد أن أدت
الفريضة .

وجلس الحاج حامد بركات بعد أن تناول إفطاره يشرب
القهوة السادة ، وجلست إلى جانبه الحاجة توحيدة ، وسألها :
— هل صبحا هارون ؟

— طبعا لا . هو كما تعلم يصحو في السابعة كأنه يصحو على
منبه .

— ربنا يكون في عونته .

— حملته العبء من أول شبابه .

— أنا تعبت ! والديون تكاثرت على ولا أستطيع أن أكافح كما
كنت أفعل في شبابي ، وهو رفض أن يذهب إلى الجامعة ، وأصر

— ٦ —

- على أن يعمل في الأرض بعد أن نال البكالوريا .
- هو يحب الأرض من طفولته .
- كان يصحو معي في الفجر ليذهب إلى الغيط .
- وهل أنسى ؟
- وكان يصلي الفجر معي ، وكأنه يؤدي حركات مفروضة عليه .
- وهو الآن لا يصلي .
- لم أستطع أن أرغمه على الصلاة .
- الصلاة لا تكون بالإرغام يا حاج . قلب الإنسان هو الذي يحتم عليه الصلاة .
- أنا اعتقادي أن الصلة بين العبد وربّه لا يجوز أن يتدخل فيها أحد .. حتى ولا الآباء والأمهات .
- صدقت .
- كل ما علينا نحن الآباء أن نعلم أطفالنا الصلاة ، ونحثهم على قراءة القرآن دون أن نرغمهم على ذلك ، لأن الإرغام سيجعلهم يتعدون عن الصلاة والقرآن جميعا .
- لك حق ، ولكن وهم أطفال لا بد أن نرشدهم .

— ٧ —

— طبعا ، ونكافئهم أيضا .. حتى إذا بلغوا مبلغ الشباب
تركناهم يواجهون الله وحدهم . وإنك لن تهدي من أحببت ،
ولكن الله يهدي من يشاء .

— مع ذلك كنت أتمنى أن يصلى هارون ، كما أتمنى أن يتزوج .
— وأنا أيضا أتمنى هذا ، ولكن هارون مشغول بالدنيا شغلا
يجعله لا يفكر فى الآخرة أبدا ، ولا فى الزواج .

— نعم يا حبة عيني مشغول بالدنيا أكثر من اللازم .
— ولهذا تركت له كل شيء ، وأنا يكفينى أن يوفر لى أنا وأنت
اللحمة وفنجان القهوة .

— وأنا وأنت لا يلزمنا شيء أكثر من هذا . ولكن يتهيا لى أن
فكرة الزواج تراوده الآن .

صحا هارون من نومه فى الساعة السابعة ، وتناول إفطاره ومرو
على أبيه .

— صباح الخير يا أبويا .

— صباح الخير يا بنى .

— أستاذك .

— ٨ —

- إلى أين يا ابني ؟ الساعة لم تصل إلى الثامنة .
- ذاهب إلى بنك التسليف .
- خير ؟
- حضرتك تعلم أن الشغل فيه لا ينتهى . ندير ديونا ونؤجل ديونا ونأخذ السلف .
- طبعاً .
- اليوم أريد أن أحصل على تقاوى القمح .
- أليس الوقت مبكراً ؟
- لقد جاءت إلى البنك ، وأفضل أن أحصل عليها مبكراً حتى تكون جاهزة .
- مع السلامة .. الله يوفقك .
- وحين ذهب هارون إلى البنك أحس من الإقبال الشديد على التقاوى أنها ستكون قليلة هذا العام ، وأن الفلاحين سيضطرون أن يشتروها من السوق السوداء عند زراعة القمح وترقيع الأرض ، أى إعادة زراعة أجزاء الأرض التى لم تنبت ما بذر فيها فى أول مرة .
- وبمكر اقتصادى لا مثيل له يتمتع به هارون ، كتب إقراراً أنه

سيزرع أربعين فداناً من القمح ، مع أنه لم يكن أعد من الأرض إلا عشرين فداناً فقط لزراعة القمح . وبقدرة فائقة على الصداقات والاتصالات استطاع أن يحصل على التقاوى التى يريد ، وهو ينوى أن يبذر نصفها فقط ويبقى النصف الآخر لبيعه بأعلى الأثمان . فهو يعلم أن الفلاح عند الحاجة إلى زراعة الأرض يدفع عمره ليحصل على التقاوى التى يحتاج إليها .

وهارون لا يعنيه فى شيء أن يرفق بالناس ، وإنما يعنيه أولاً وأخيراً أن يحصل على المكاسب من أى سبيل ، مهما يكن فى هذا السبيل عنت بالآخرين وإثقال على مقدراتهم .

كان جالساً إلى مدير البنك ليكمل إجراءات صرف الكيماوى ، حين دخل الحجرة سعدون عمارة ، وهو رجل طويل القامة ضخيم الجسم يعرفه هارون ويعرف هارون ، ولكنها معرفة لا ترقى إلى مستوى الصداقة ففارق السن بينهما ليس هينا . ولكن هارون — شأن أعيان الريف جميعاً — يعرف كل شيء عن كل إنسان فى المنطقة وما حولها ، وقد كان يتوق إلى لقاء سعدون وكان يريد أن يأتى هذا اللقاء صدفة دون إعداد سابق .

وقد كان سعدون أغلب وقته مقيماً بالقاهرة بعيداً عن أرضه ،

— ١٠ —

ولهذا لم يكن إنتاج أرضه إنتاجا يرضى عنه الفلاح الخبير .
استقبل هارون القادم عليه في غرفة مدير البنك بترحاب
شديد .

— مرحبا سعدون بك ، عاش من شافك .
— أهلا هارون بك ، ماذا أعمل ؟ أنا قليل المحي إلى العزبة كما
تعرف .
— أعرف .. هل جئت اليوم وحدك أم جاءت معك العائلة ؟
— لا والله جئت وحدي ، فلن أبقى هنا أكثر من ليلة واحدة .
— إذن فالغداء عندى اليوم .
— يا سيدى حفظك الله .
— لا والله لن أقبل عذرا ، والبك مدير البنك سيشفع لى
عندك .

وقال مدير البنك محروس مهنا :
— ولماذا أشفع وأنت لم تدعنى معه ؟
وقال هارون :
— أخاف إن دعوتك أن أغضب السيدة حرمك ، فأنا أعرف
أن أولادك فى القاهرة وزوجتك معك ، وأنتك إذا تركتها

— ١١ —

فستغدى وحدها .

وقال محروس :

— لكم أخاف منك يا هارون بك . ليس شيء في بيوتنا إلا
وأنت مطلع عليه .

— ليس في الأرياف سر .

— ولكنى أعيش هنا في المدينة في الزقاريق ، فكيف تعرف
أخبارى كلها ؟

— أولاد الحلال كثيرون ، والناس ليس لهم تسلية إلا أخبار
الناس .

— ترى يا هارون بك هل تعرف ما يدور في البيوت فقط ، أم
تعرف أخبارنا في حجرات النوم أيضا ؟

— ليس في حجرات النوم أسرار تستحق الذكر يا محروس .

— يعنى تعرف هذا أيضا ؟ ربنا ينجينا منك يا هارون بك .

والثفت هارون إلى سعدون وهو يقول له :

— هيه يا سعدون بك ، الغدا عندي أم أذيع أسرارك ؟

وقهقه سعدون عمارة وهو يقول :

— المسألة أصبحت تهديدا إذن ؟

— ١٢ —

وقال محروس :

— تهديد واضح ؟

— نعم تهديد .. ما رأيك ؟

وقال محروس :

— وما الداعي للتهديد ؟ .. لا ياعم .. الغدا أهون .

وأكمل هارون عمله مع محروس ، وذكر سعدون ما جاء فيه وأنهى هو أيضا موضوع التقاوى الذى كان قادما من أجله وصحب هارون سعدون إلى البيت . وسرعان ما أعطى أوامره بإعداد غداء يليق بالموضوع الذى دعا من أجله سعدون إلى الغداء .

* * *

تناولا الغداء فى حجرة المائدة وانتقلا إلى غرفة الاستقبال . وكان بيت الحاج حامد ذا طابقين ، فالطابق الأول خالص للاستقبال تقريبا ، والطابق الأعلى مخصص للنوم .

قال هارون :

— هل تحب أن تنام قليلا ، أم لست متعودا على نوم القيلولة .

— ليس دائما .

— ١٣ —

— أما أنا فأحب أن أنام .

— وهو كذلك .. تفضل !

وصحبه إلى غرفة خاصة لنوم الضيوف في مثل هذه الحالات ،
واطمأن إلى صلاحية الغرفة للنوم وأقفل بابها عليه وذهب إلى
أريكة بحجرة الجلوس واتكأ عليها . وغفت عيناه وأحلام سعيدة
تداعب جفنيه .

* * *

حين صبحا سعدون من النوم جلس إلى هارون في حجرة
الاستقبال يحتسيان القهوة ، وقال هارون :

— ما رأيك يا سعدون بك ، عندى لك مشروع يفرحك .

— ياليت .. قل ما هو .

— أنت أغلب الوقت بعيد عن البلد ، وأرضك حوالى سبعين

فدانا ليس فيها أرض مؤجرة لفلاحين .

— عندك أخبارى كلها ، كيف عرفت أنها سبعون فدانا مع أن

المسجل منها خمسون فقط .

— ١٤ —

— أتحب أن أذكر لك أسماء الأربعة الذين بعث لهم العشرين

فدانا الأخرى بيعا صوريا ؟

— لا .. لا داعي ، واضح أنك تعرف كل شيء عني

— أنت لست هاويا للفلاحة ، والبنتان عندك لا تحبان

الريف .. وأنت تحب أن تقضى وقتا مع الأصدقاء ، والزراعة عندك
الآن لا تأتي بهما .

— والله لك حق ..

— كم تكسب من الأرض الآن ؟

— حوالى ألفى جنيه فى السنة .

— هذا ما قدرته فعلا .

— أنت وضعت يدك على حقيقتي ، أنا لست فلاحا ماهرا ولا

محاسبا ماهرا ، وأعلن أنني مسروق فى كل شيء سواء فيما أنفق

على الزراعة أو ما أحصل عليه من محصول الأرض على السواء

— ما رأيك لو أعطيتك ثلاثة آلاف جنيه فى السنة ، تأخذها

دفعه واحده كل عام فى شهر نوفمبر .

وصمت سعدون قليلا ثم قال :

— أحيانا أحب أن أجيء إلى البلدة ومعى أسرتى .

— ١٥ —

- سبحان الله ! أنا أستاجر الأرض لا أشتريها . وبيتك لا يلزمني .. تعال أنت وأسرتك كلما شئت .
- على بركة الله .
- نكتب عقدا .
- عقد إيجار ؟
- عقد توكيل بإدارة الأرض ، وعندما أسلمك المبلغ تكتب لي إيصالا به .
- توكلنا على الله .
- توكلنا على الله .

* * *

حين عاد سعدون إلى بيته ، استقبلته زوجته وفيّة الزهار التي تزوجها منذ خمسة وعشرين عاما زواجا تمطيا . فقد كان والده عبد الهادى بك عمارة صديقا لوالدها عثمان بك الزهار ، وكانا متجاروين فى الأرض ، وكانا يقيمان شأن ذلك الزمان بالريف أغلب الوقت فكانا يسهران معا فى بيت أحدهما يلعبان النرد ويلتقيان بالناس . وكان كل منهما يعرف أصدقاء الآخر معرفته بأصدقائه وبفلاحى أرضه هو . فكان عبد الهادى دائما يلتقى فى مجلس عثمان الزهار باثنين لا يغيبان عن مجالسته ، أحدهما عطا الله عبد السيد وهو تاجر أقطان صغير يعمل فى كميات قليلة من القطن دون توسع فى البيع أو الشراء ، ولكنه كان ميسورا كريما على نفسه حسن المظهر دائما ، وكان يلبس الجلباب البلدى الأنيق ، فإن كان الشتاء يلبس معطفا من الصوف الجيد . وكان يحيد الحديث عالما بأسرار المنطقة ، وكان عبد الهادى يسمع منه

دائما أخبارا جديدة . وكان ليبيا في تعليقاته ذكيا كل الذكاء في تفهمه لما يسمع . وكان يقرأ الجرائد بدقة شأن التجار ليتقصى أخبار السياسة صاحبة العامل الأول في أسعار التجارة وخاصة القطن . أما الرجل الثاني فقد كان الحاج وافي العسكري ، وليس اسم العسكري دليلا على أنه كان يعمل في الجيش أو الشرطة ، وإنما هو اسم وجده لنفسه وعرفت به أسرته دون أن يكون له معنى أو أصل تاريخي . وقد كان الحاج وافي من أعيان بلدة التمايلة التي بها أرض عثمان بك الزهار وبيته . وكان الحاج وافي يعمل في تجارة الغلال ، وكان يأبى أن يشتري أرضا لتظل أمواله كلها سائلة حرة يشتري بها ما يتاح له من صفقات . وكانت محاوراته مع عطا الله أفندي تضيء على الجلسة نسمات رطبية من الضحك وخفة الروح . وقد كان أيضا على صلوات كثيرة بالناس شأنه شأن عطا الله أفندي وكان يعرف خباياهم . ولم يكن له إلا ولد واحد وكان هذا يسعده على عكس ما عرف عن أعيان الريف من حبه لكثرة الأبناء ، في حين كان لعطا الله أربعة أبناء كلهم ذكور .

وكان عثمان بك إذا زار عبد الهادي بك وجد عنده دائما ناظر زراعته إبراهيم أفندي جندي ، ولم يكن أفنديا كامل الأفندية وإنما

كان يلبس مثل عطا الله عبد السيد الجلباب البلدى والطربوش . وبالطربوش وحده اكتسب لقب أفندى كما اكتسبه أيضا بخبرته الدقيقة بالحساب والدويا . والدويا هذه لفظة لا يعرفها أبناء الجيل الجديد .. إنها طريقة خاصة للحسابات أغلب الأمر كانت تتم بها محاسبات الزراعة .

وكان إبراهيم رجلا أميناً غاية الأمانة لا عيب فيه إلا ادعاءه لنفسه من الأعمال الجلائل ما لم يقيم به ، ولكن هذا في ذاته كان يضيف على حديثه ظرفاً يتيح لعبد الهادى بك وجلسائه أن يتفككها به ويتندروا عليه . فكأن يقبل دعاباتهم في سماحة ، ويمضى في حديثه عن أعماله الجليلة وكأن أحداً لم يقل شيئاً أو يسخر مما يقول .

وكان من جلسائه الشيخ متولى عبد الموجود ، وكان فلاحاً حاذقاً في الفلاحة ويحفظ القرآن وإن كان لا يلبس العمامة ، وكان لا يملك إلا فدانين يحصل منهما على محصول لا تنتجه خمسة أفدنة ، وكان عبد الهادى يغدق عليه الهدايا ، وكان هو محباً أشد الحب لعبد الهادى بك .

وكان في مجلس عثمان أيضاً شخص آخر يجده عبد الهادى كلما

زاره ، وهو بلال أفندي عبد الفتاح . وكان مدرسا في المدارس الإلزامية ومجبا للشعر يحفظ منه الكثير وينظم منه القليل . وكان عبد الهادى وعثمان يأنسان إلى حديثه سواء كان راويا للشعر أو ناظما له . وكان لماح الذهن حاضر البديهة يملك أربعة أفدنة ، وكانت مع مرتبه تجعل منه واحدا من أغنياء القرية ، خاصة وأنه كان شديد البخل إلا فى ملبسه الذى كان دائما أنيقا . وكانت الصداقة بين عثمان وعبد الهادى وطيدة ، ولهذا لم يكن غريبا أن يتزوج سعدون وفتية . ولم يلاق عبد الهادى بك من ابنه أى ممانعة . فلم يكن سعدون يعرف فتاة أخرى ، وكانت الفتيات عنده كلهن متساويات لا فارق ثمة بين فتاة وفتاة ، وكل ما فعله أنه سأل أباه عنها :

— شفتها يا ابويا ؟

— طبعا شفتها .

— حلوة ؟

— قمر .

— توكل على الله .

ولم تكن وفيه قمرا ولكنها أيضا لم تكن قبيحة . كانت فتاة

كأى فتاة لا تجتذب عينيك إذا رأيتها ، وهى أيضا لا تجعل عينيك تنصرفان عنها . كانت بيضاء البشرة ذات شعر أسود لا هو بالمسترسل ولا هو أيضا بالمبلد ، ذات عينين سوداوين فى غير ضيق ولا اتساع .. تلقت تعليمها فى المدارس حتى بلغت السنة الثانية من الثانوى ، ثم ضاقت بالتعليم أو ضاق بها التعليم فأقامت فى بيت أبيها تنتظر العدل .

وتزوجت سعدون ، وكان سعدون أيضا قد ترك التعليم بعد حصوله على البكالوريا التى تقلبت عليها الأسماء فأصبحت توجيهية ثم أصبحت ثانوية عامة .

ولم يكن سعدون راغبا فى إكمال تعليمه ولا كان أبوه مهتما بذلك أيضا ، راجيا أن يتفرغ سعدون لفلاحة الأرض .

ولكن سعدون لم يكن يهوى الفلاحة ، فما لبث بعد زواجه بسنة وبضعة أشهر أن أقام فى بيت أبيه فى القاهرة فى حى جاردن سيتى . ولم يكن البيت فخما ولا كان متواضعا وإنما وسط بين هذا وذاك ، ولم يكن أبوه راضيا عن ذلك ، ثم احتسب الله : ربما بعد أن أموت أنا يضطر سعدون إلى فلاحة الأرض ، فليس له مورد رزق حقيقى إلا هى وعمارة الزمالك وعمارة عابدين ،

وهما عمارتان قد يمتان ما يلبشان أن يهدما ويجد سعدون نفسه وجها لوجه مع الأرض . وماذا سيفعل في أرض زوجته ؟ إنها سترث أيضا .. اتركها لله كله بأمره .

تعود سعدون منذ ذهب إلى القاهرة أن يجلس في بار الأنجلو الذى يضم كثيرين من الأعيان ، وكان البار في الصباح مقهى وفى الليل بار .

وأصبح سعدون زبونا دائما له فى الليل ، أما فى الصباح فهو يعكف فى البيت على القراءة فكان يقرأ بنهم شديد وبمتعة لا مثيل لها .. ووجد نفسه فى جلسة المساء جالسا إلى قوم لا همّ لهم إلا شرب الخمر وتبادل الحديث الخمر ، فكان لا بد له أن يشاربهم . وأعجبه نشوة الخمر فصار يشرب حتى إذا مرت به وفة آخر الليل لتصحبه إلى البيت وجدته فى حالة سكرين . وضاعت بهذه الكارثة ولكنها مالبت أن راضت نفسها على قبول الأمر الواقع ، فلم يكن لها حيلة إلا أن تقبل الأمر الواقع .

وأحب سعدون الخمر وفتن بمجالسة الخمورين ، وتعود كلما جاء السائق ليدعوه للقيام ويبلغه أن الست تنتظره يقول له :
— يا مغفل ابحث عنى بعض الوقت ، هل لا بد أن تجدنى بهذه

السرعة ؟

ويتابع الشرب ، ويظل السائق رائحا غاديا بينه وبين وقية حتى يقوم كارها .

ولم تمض سنة على مجيئه إلى القاهرة حتى حملت وقية طفلتها الأولى حميدة . ولم يمض أكثر من عام وبعض عام حتى رزق الزوجان بابنتهما الثانية وجيدة . ولم يكن سعدون يهمله أن ينجب البنين أو البنات فقد أصبح لا يعنيه من الحياة إلا الكأس والقراءة التي يتفرغ لها نهاره كله . ولم يكن أمر سعدون خافيا على هارون ، ولكنه أبى أن يذكر له وهو يفأوضه في الأرض معرفته بحبه لبار الأنجلو وما يشربه فيه .

كانت حميدة في العشرين من عمرها حين تمت الصفقة بين هارون وسعدون .

وكان سعدون إذا لم يكن مخمورا غاية في التعقل والاعتزان ، وكانت الخمر تخرجه عن وقاره بعض الشيء ولكنه لم يكن يخرج عن أدبه قط ، وكان يستطيع أن يتحكم في ألفاظه . وكان ذكيا في سكره ، فإذا أراد أن يصارح أحدا أصدقائه برأى لاذع فيه ، ادعى أنه سكران وقال ما يريد قوله .

— ٢٣ —

لهم صديق اسمه عيسى حامد ثرى غاية الثراء بخيل كز غاية
البخل والكزازة، ويتمتع شأن كل بخيل بصفاقة يشهد له بها جميع
رواد المقهى . يأتى فى كل ليلة ويمر على المناضد واحدة بعد
أخرى ، وتدعوه كل منضدة إلى كأس أو كأسين يشربه أو
يشربهما وينتقل إلى منضدة أخرى ، فما إن تنتهى دورته على
المناضد حتى يكون قد نال من الويسكى كفايته دون أن ينفق
مليما واحدا . وفى ليلة مر كعادته بمنضدة سعدون وكان لسان
سعدون قد بدأ يلتونى من الخمر فيبدو كأن الويسكى قد تعتعه
فنادى بأعلى صوته :

— مانولى !

فجاء القاهى :

— أفندم سعادة البك ؟

— حسابنا كله الليلة عند عيسى بك حامد .

وزلزل عيسى زلزالا شديدا :

— ماذا ؟

— أى ماذا يا أخى . أنت كل يوم تأتى إلى المقهى وتسكر مجانا

وتروح .

— ٢٤ —

ادفع مرة الحساب عن نفسك ، ألا تحب أن تشعر مرة بلذة
السكر على نفقتك الخاصة ؟

— ولكن هذا ظلم يا سعدون بك .

— الظلم ما أفعله أنا بك أم ما تعمله أنت في زبائن المقهى كل
ليلة ؟ .. خف ولا تثقل حتى لا يضيق بك أصحابك ورفاق
كأسك .

وهكذا كان يفعل سعدون كلما عن له أن يصارح أحد
الجالسين معه برأيه فيه ، فكان أصدقائه يحبون مجالسته كل الحب
ويضحكون مما يفعله ويقولونه .

وقد ارتاح سعدون كل الارتياح للصفقة التى أتمها مع
هارون ، وحين عاد إلى زوجته بعد إتمام الصفقة أخبرها بها فإذا
هى تقول :

— مبروك يا سعدون ولكن لماذا نسيتنى ؟

— كيف ؟

— أرضى .

— أليست أرضك مع عطا الله أفندى والحاج وافي ؟

— إنها معهما بناء على عقد بيع صورى ، ولا أحصل منهما إلا

— ٢٥ —

على مبالغ ضئيلة . فلم لا تؤجر الأرض لهارون ويدفع لى مثلما
يدفع له ؟
— والله فكرة .

كان عثمان الزهار يدرك أن ليس له إلا بنت واحدة ، وكان
يملك مائة فدان لو مات عنها ما ورثت ابنته إلا نصف الأرض
ويشاركها أخوه مجدى وأخته تفيدة فى النصف الآخر . فتشاور
مع زوجته بهيئة على أن يبيع أرضه مناصفة لعطا الله أفندى وللحاج
وافى ، ويكتب كل منهما على نفسه وصل أمانة بقيمة الأرض
واستحسننت بهيئة الفكرة ونفذها عثمان فعلا وسجل الأرض ، ولم
يمر على تسجيل الأرض سنة حتى كان عثمان قد انتقل إلى رحمة الله
قبل أن يشهد ثورة ٥٢ .

أما عبد الهادى فقد شهد ثورة ٥٢ ولحق به قانون الإصلاح
الزراعى الأول . وكان يملك سبعين فداناً فلم يكن واقعاً تحت
طائلة القانون .. ولكنه أدرك بإلهام لا يدري مأتاه أن الأمر لن
يقف بالثورة عند هذا فقال لابنه سعدون :

— ٢٦ —

- أرى ألا نبقى لك أكثر من خمسين فدانا .
- تريد أن تباع عشرين فدانا ؟
- نبيعها ولا نبيعها .
- يجب أن تكون واثقا من المشتري .
- لقد فكرت فيهم فعلا .
- إبراهيم أفندي جنديده ومن ؟
- أنا لا أريد أن أبيع للشخص الواحد أكثر من خمسة أفدنة .
- كلام معقول .
- طبعا سأبيع خمسة أفدنة لوالى قطب .
- طبعا هذا واحد منا .
- وما رأيك فى الاثنين الآخرين ؟
- موجودان .
- من ؟
- ما رأيك فى الشيخ متولى وبلال أفندى ؟
- ونعم .
- على بركة الله .
- على بركة الله .

— ٢٧ —

وتم البيع الصورى لكل هؤلاء فعلا ، ولكن استمر عبد الهادى يزرع حتى توفى . وحين ورث سعدون الأرض ظل الأمر على ما كان أيام أبيه . ولم يجد هارون أية صعوبة فى تسلم الأفدنة السبعين كاملة بما فيها العشرون فدانا المبعة بيعا صوريا .

* * *

أما الحاج حامد بركات والد هارون فكان لا يملك إلا بيتا فى عابدين وأربعين فدانا ، وحين صدر قانون الإصلاح الزراعى الأول باع أرضه كلها لابنه هارون حتى يعفيه من ضريبة التركات . وكان هارون فى ذلك الحين قد ترك الدراسة وبقي فى الأرض يفلحها ويحاول أن يسدد الديون المتراكمة عليها لبنك التسليف . ولم يكن الأمر سهلا ولكنه بذكائه الشديد استطاع أن يجعل أموره تسير . وكان هارون فى ذلك الحين فى الخامسة والعشرين من عمره ، ولكن درايته بإدارة السلفيات وتأجيلها والحصول على سلفة جديدة لتسديد سلفة قديمة حل موعدها ، كانت دراية واسعة مكنته ومكنت أباه وأمه أن يعيشوا عيشة

— ٢٨ —

ميسرة . وحين تمكن من عقد صفقته مع سعدون أحس أنه على أبواب الغنى الذى يسعى له سعيًا حثيثًا لا يرده عنه شيء ولا يقف فى سبيل وصوله إليه حائل ، مهما يكن هذا الحائل متصلًا بالنزاهة أو غيرها .

* * *

٣

دق جرس التليفون فى بيت الحاج حامد بركات وكان
المتحدث سعدون عبد الهادى ، وسأل عن هارون . وأمسك
هارون سماعة التليفون لىسمع صوت سعدون .

— كيف أنت يا هارون بك ؟

— مرحبا .

— هل تنوى الجىء إلى القاهرة قريبا ؟

— أنا تحت أمرك .

— أريد أن اراك فى أمر يهمنى .

— أجبىء إليك باكر إن شاء الله .

— نتغدى معا .

— وهو كذلك .

* * *

على الغداء كانت المائدة معدة إعدادا أنيقا ، وتحلق حولها أسرة

— ٣٠ —

سعدون وفيّة هانم وحميدة ووجيدة .

كان هارون يفكر تفكيراً جاداً في الزواج .

وكان يعرف أن لسعدون بنتين ، ولكنه لم يكن رآهما من

قبل .

وكانت حميدة مقبولة السمات لا هي بالجميلة الباذخة

الجمال ، ولا هي أيضاً على شيء مما يعاب في وجوه الفتيات ..

وكذلك كانت أختها . إلا أن حميدة كانت ذات شعر أسود داكن

منسبب تجيد التعامل معه وتجعل منه وسيلة من الوسائل التي

يكسب بها الفتيات وجوههن جمالاً ورقة وعذوبة . وقد كانت

حميدة وادعة فيها طيبة وهدوء طبع كما كانت أختها كذلك ، وربما

كان لشعور الفتاتين بما يدمنه أبوهما من شرب الخمر أثر في جعلهما

تشعران ببعض الأسى الذي يلون هذا الهدوء ، ويجعل فيه رضا بما

قسمه الله لهما .

وإن هارون عينا نافذة ظلت تنتقل بين الفتاتين في ذكاء

ودهاء ، حريصاً دائماً ألا يشعر الوالدان أو الفتاتان أنه ينعم النظر

فيهما .

كان هارون فتى أقرب إلى الطول منه إلى القصر ، وكان شعر

— ٣١ —

رأسه مرجلا ولم يكن بالشعر الكث ، واسع الجبهة ضامر الخدين له ذقن مدبب وأنف ووجه أقرب إلى الطول منه إلى الاستدارة . وكان من أولئك الناس الذين يستطيعون أن ينفذوا إلى الذين يلاقونهم بابتسامة ثابتة لا تترك فمه ، ومع ذلك يستطيع أن يشيع فيها الحياة بما له من موهبة قادرة على إرضاء جميع الناس ، والتلطف في الحديث إليهم ، ومعرفة مواضيع الحوار القريبة إلى نفوسهم .. بل وبمقدرة فائقة على الوصول في لحظة خاطفة إلى المكامن الخفية في نفوس محدثيه التي تجعلهم سعداء راضين عن أنفسهم وعنه كل الرضاء .

وانتهى الغداء وانصرفت الفتاتان وخلا المكان بهارون وسعدون ووفيه هانم .

ونظر سعدون إلى زوجته وقال :

— تتكلمين أنت أم أتكلم أنا ؟

وفي ذكاء لماح قال هارون :

— إن كان لي رأى ، أنا أرى أن صوت السيدات أجمل بكثير

من صوت الرجال .

وقال سعدون مستجيبا لتظرف هارون :

— ٣٢ —

— إذن قضى الأمر ، تكلمى يا ستى .

وقالت وفيّة على استحياء :

— يعنى يا هارون بك تأخذ أرض زوجى وتترك أرضى ؟

— والله أحببت أن أجرب الأمر فى أرض سعدون بك أولا .

— ولماذا لا تجرب فى أرضنا معا .

— أنا أعرف أن عطا الله أفندى والحاج وافى يزرعان الأرض

ويقدمان ريعها كاملا .إليك .

— الحقيقة أنا لا أشكو منهما شيئا فكلاهما رجل أمين ،

ولكنهما يزرعان الأرض زراعة تقليدية ، وطبعا كثر خيرهما فهما

لا يكسبان منى شيئا إنما شعورهما أنهما ليسا مالكين ولا حتى

مستأجرين يجعلهما خائفين من التعامل مع الأرض .

— انا أعرف أن الأرض ليست مؤجرة .

— هذا صحيح ، إنها ليست مؤجرة .

— لا تنسى يا هانم أن عطا الله أفندى والحاج وافى مع ما هو

مشهور عنهما من أمانة ، يكسبان من الأرض مكسبا كبيرا .

— أترى ذلك ؟

— يكسبان الوجهة ، وشعور الناس بالحاجة إليهما ..

— ٣٣ —

— والله .. جازي .

— بل مؤكد ، وأظنك تأخذين من كل منهما ألفا وخمسمائة

جنيه كل عام .

قال سعدون :

— حتى هذه تعرفها ؟

وقالت وفيه :

— فعلا .

قال هارون :

— أيرضيك أن أدفع إليك في الأرض كلها أربعة آلاف جنيه ؟

— على بركة الله .

— وسأوقع العقدين مع عطا الله أفندي والحاج وافي .

— وهو كذلك ، ونحن سنبلغهما أن يسلماهما إليك .

— على بركة الله .

* * *

٤

جلس هارون إلى والده وأمه وهما يشربان قهوة الصباح ،
وقال الحاج حامد .

— هيه يا هارون ، ماذا تنوى أن تزرع أرض سعدون
وزوجته ؟

— والله يا أبى لم أقرر بعد . أبحث فى فكرة زراعة موالح .
— ربنا يوفقك يا ابنى .

— المهم أريد أن أقول لكما شيئا أعتقد أنكما ستفرحان له .
وقال ابوه :

— هيه هل آن الأوان ؟

وقالت الأم فى فرحة :

— أخيرا نويت ؟

وضحك هارون مقهقهها وهو يقول :

— وهل قلت شيئا ؟

— ٣٥ —

وقال الحاج حامد :

— بل قلت كل شيء .

وقال هارون :

— إذن موافقان ؟

وقال الحاج :

— على الزواج نعم ، ولكن ألا نخبرنا من العروس .

قال هارون :

— حسبتك عرفتها ؟

وقالت الأم :

— حميدة بنت سعدون عمارة .

وضحك هارون :

— وكيف عرفتها ؟

وقال الحاج حامد في ظرف وابتسامة :

— المسألة لا تحتاج إلى ذكاء .

— وما رأيك يا ابويا ؟

— والله لا عيب فيها إلا إدمان أبيها للخمر .

وقالت الحاجة توحيدة :

— ٣٦ —

— ونحن مالنا وماله ؟

وقال الحاج حامد :

— توكل على الله ، إن سعدون صديقى وحبيبى منذ سنوات .
وشدت الأم ابنها فقام من مجلسه ، واحتضنته أمه فى سعادة
غامرة ودموع من الفرح تترقرق فى عينيها :
— ألف مبروك يا بنى .. ألف مبروك يا هارون .

وقال هارون :

— على مهلك يا أمى . ألا نعرف أولا إن كانت عائلة سعدون
موافقة أم لا ؟
قالت الأم :

— لا ، من هذه الجهة لا يكن عندك فكر .. طبعا موافقة .
وقال هارون :

— متى تستطيعان السفر إلى القاهرة ؟

وقال الحاج حامد :

— إن شئت قمنا معك الآن .

وقال هارون :

— لا ليس إلى هذا الحد . نكلمهم أولا ونتفق على موعد .

— ٣٧ —

وقال الحاج حامد :
— وهو كذلك .

* * *

إن للفتيات في سن حميدة ووجيدة حاسة سادسة يدركن بها أن
هناك نظرة نافذة تحيط بهن ، وتتعرف ما يحاولن أن يخفينه من
أعماق نفوسهن .

وبهذه الحاسة لم يخف عن حميدة ووجيدة النظرات المتلصصة
التي كان يختلسها هارون طوال فترة الغداء .
وأدركت حميدة أنها أقرب إلى اختياره من وجيدة .

— كانت نظراته إليّ أكثر تعمقا .. والله لا بأس به ، ربما كان
أكبر مني قليلا ولكنه مناسب على أية حال ، وأحسب أنني
أستطيع أن أطمئن إلى حياتي وأنا زوجة له . وأنا — والحمد لله —
لا أحب أحدا بذاته . وإن كان توفيق قريينا الذى لا أعرف درجة
قرايته لى يحاول أن يشعرنى باهتمامه بى إلا إننى لا أرتاح إليه . إنه لا
يعرف شيئا عن مشاعر الحب التى يحاول أن يتخفى وراءها
بالنظرات التى أحس فيها الكذب ، والكلمات التى أشعر فيها
بالاصطناع الذى يفشل أن يخفيه .

وأحسب أن توفيق بلا مشاعر على الإطلاق . وأرى أيضا أن هارون بلا مشاعر على الإطلاق ولكنه لا شك ذو عقل واسع رصين تجربته أكبر من سنه بكثير . ثم هو ليس فقيرا فقر توفيق ، فإن كان يفكر في مال أبى وأمى فليزيد هذا المال ، فليس هناك ما يدعوه أن ينهبه . أما توفيق فشباب ما زال في نرق الشباب ، وليس بعيدا حين يخلص هذا المال إلى بعد عمر طويل أن ينهبه توفيق لينفقه على ملذات الشباب ، الأمر الذي لا أخشاه مطلقا من هارون . فواضح أن هارون كلف بالثروة ولوع بالغنى . ولا بأس على أن يكون زوجي فأغلب الأمر أنه سيجعلنى سعيدة في حياتي ، وأنه سيجعل حياتي هذه بلا مشاكل على الإطلاق . وأنا أعرف نفسى وأعرف أننى أحب أن أحيا حياة راضية ، وإن كنت أحب الأشياء النفيسة فلا يستطيع أحد أن يلبي هذه الرغبات التى تزخر بها نفسى إلا رجل غنى ، وواضح أن هارون سيصبح ذلك الغنى الذى يتمنى لنفسه أن يكونه .

أما وجيدة فقد أحست بنظرات هارون . واضح أنه اختار حميدة فأنا وحميدة متقاربتان في الجمال ، وطبيعى ما دام الأمر كذلك أن يختار الكبرى ما دام الاختيار قائما على العقل وحده ،

فما رآنى ولا رأى حميدة قبل اليوم ، وليس فئ شئ يجعله يفضلى
على حميدة .

وفيم العجلة ؟ فكما وجدت حميدة هارون أو كما وجد هارون
حميدة فالطبعى والمعقول أن أجد من يجدنى أنا أيضا ، فهنيئا
لحميدة بهارون وهنيئا لهارون بحميدة .

* * *

لم يدهش سعدون ولا دهشت وفيّة حين دق جرس التليفون
فى منزلهما وكان المتحدث الحاج حامد بركات . فكلاهما لم
يغرب عنه سرعة اقتناع هارون أن يتولى أرض وفيّة كما تولى أرض
سعدون ، ورأيا فى ذلك دلالة على أنه انتوى شيئا ، ولم تستطع
وفيه أن تكتم ما جاش فى صدرها .

— أتراهننى أنه ينوى أن يخطب واحدة من البنتين ؟

— لا .. لا أراهنك فهذا أمر محتمل . وما رأيك ؟

— والله الرجل لا عيب فيه .

— ربما كان أذكى مما ينبغى .

— وهل هذا عيب ؟

— أحيانا كثيرة يكون الذكاء المفرط شرا من الغباء .

— ٤٠ —

- ما هذا الكلام ؟
- عيب الأذكياء أنهم لا يقدرّون ذكاء الآخرين فيقعون في مشاكل لاحد لها .
- ما هذه الفلسفة ؟
- تعلمتها من تجارتي مع الناس ومن كثرة ما قرأت .
- أهذا عيبه في نظرك ؟
- وهو يتعجل الغنى .
- الله يبارك له .
- عيب هؤلاء أنهم لا يذكرون الله كثيرا ولا يعينهم أن يرضوه .
- يا أخى قل هذا الكلام لنفسك .
- الله يعلم ما بينى وبينه ، أما إن كنت تقصدين الخمرة فعقوبتها ستون جلدة ، وأنا عامل حسابى أن يجلدنى الملائكة الجلدات الستين ، ثم سيكون كتابى بعد هذا فى يمينى إن شاء الله .
- عينى عليك باردة ، أنت مرتب كل أمورك مع ربك ..
- حسبى أنى لا أؤذى أحدا ..
- بل أنت تؤذى أهم إنسان بالنسبة لك .

— ٤١ —

— من هذا ؟

— نفسك .. أنت تحطم كبديك ، والذي لا يحافظ على نفسه
لا يستطيع أن يحافظ على الناس .

— المرض والموت من عند الله .

— سبحانه من عنده كل شيء ، ولكن الإنسان لا يتحرثم
يقول الموت من عند الله .. هذا كفر .

— الكفر والإيمان الله وحده يعلمه .

— ألا تخشى أن تعتدى على أحد وأنت سكران ؟

— أنا لا أشرب إلا بعد أن أصلي العشاء ، وكل الذين حولي
سكارى والحمد لله ، والسكران يفهم السكران الآخر ولا
يغضب منه .

— عجيبة ! إننا نسمع كل يوم عن السكران الذى قتل ،
والسكران الذى بطح .

— أظنين أننى يمكن أن أقتل أو أبطح ؟

— المهم هل معنى هذا أن نرفض هارون ؟

— أنا لم أقل نرفضه ، ولكن فقط أذكر لك عيوبه وأدعو الله
أن يقيه شر نفسه ولهفته على جمع المال .

— ٤٢ —

- ولمن سيكون هذا المال ؟ أليس لابنتك وأحفادك ..
- يا وفيّة المهم ليس المال ، وإنما المهم كيف نجمع هذا المال .
- أيسرق ؟
- إذا تأكد أن أحدا لن يكشف سرّقه . وهناك وسائل كثيرة لجمع المال عند المنهوم .. السرقة واحدة منها .
- أترك المستقبل لله .
- كان التليفون الذى دقّه فى منزلهم الحاج حامد يوم السبت ، وتواعدوا على أن يتناول الحاج حامد وأسرته الغداء فى بيتهم يوم الاثنين .

* * *

قال حامد :

- بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، أنا يا سعدون بك أملك أربعين فدانا وبيتنا فى المنيرة ، ولذلك لم تنل منى الثورة سهما واحدا . وأنا وأنت أصدقاء منذ زمن بعيد .
- نحمد الله ونشكر فضله ..
- منذ أول قانون بعث الأرض بعقد مسجل فى الشهر العقارى لهارون ابني ، ولم يبق على ذمتى شيء إلا البيت .

— ٤٣ —

وهارون هو الذى ينفق على أنا وأمه ونحن مطالبنا لا تزيد على
اللقمة والهدمة وفنجان القهوة .

— أطل الله عمرك .

— ونريد أن نزوج هارون .

— على بركة الله .

— مد يدك واقراء معى الفاتحة على خطبة حميدة لهارون .

— على بركة الله ، ولكن ألا ترى أن نساءها ؟

— طبعاً .. قم فاسأها .

— قد تطلب مهلة .

— المهلة تكون حين تريد أسرة الخطيبة أن تسأل عن أسرة

الخاطب ، وهذا لا داعى له بيننا فكل منا يعرف عن الآخر كل

شئ ..

ولأول مرة يتدخل هارون قائلاً :

— يا أبى لا تخرج سعدون بك .

وقالت وفيّة :

— لا يا هارون .. ليس هناك أى حرج ، وإن كان على السؤال

فسأقوم أنا وأسأها الآن .

— ٤٤ —

وقال الحاج حامد :

— توكل على الله .

وقامت وفيّة وعادت وعلى وجهها إشراق الأم حين تفرح

بابنتها وقالت :

— اقرأ الفاتحة يا سعدون على بركة الله .

وما هو إلا شهر وبعض شهر حتى تم الزواج .

* * *

٥

كان الحاج حامد قد اشترى بيته بالمنيرة أيام الحرب العالمية الثانية ، وكان يقيم به أوقاتا كثيرة إلا أنه أخيرا فضل أن يقيم بيته في قريته الحمايدة ولا يترك الريف . فقد كان أصدقاؤه في القاهرة أغلبهم قد اشتغل بهموم الدنيا التي تكاثرت بعد الثورة ، فوجد أن في إقامته بالحمايدة ما يعينه على قطع الوقت مع أهل البلد الذين يزورونه وفي لعب النرد مع بعضهم وأغلب القاصدين إليه .

وربما كان مختار عمر أكثر الزائرين له انتظاما في الزيارة ، ومختار عمر مدرس ابتدائي أحب الحاج حامد وأنس إليه ، وكان يلعب معه النرد أحيانا حتى إذا ملاحا جرى بينهما الحديث تعليقا على ما جاء في الصحف أو تعليقا على ما يحدث في القرية أو في القرى المجاورة . وكان مختار يزور الحاج حامد في الصباح حين ينتهى من دروس المدرسة ويتركه وقت الغداء ليعود إليه بعد القيلولة ليستأنفا ما انقطع من حديث الصباح أو الظهيرة . وكان

هناك زائرون كثير للحاج حامد فهو يحظى بين أهل الحمائدة بالحب والتقدير ، فقد كان رجلا سمحا في معاملته للناس حريصا أن يرضى الجميع ، وكان يعين الناس على قضاء حوائجهم ، وكانوا يعرفون أنه ليس ذا ثراء فلم يكن أحد يطلب إليه أن يعينه بمال : هبة كان هذا المال أو كان قرضا . وكان منتداه في الصيف حديقة غير معتنى بها ، ولكنها تقع من البيت في مكان ظليل بجوار جدار البيت . وكان هذا المنتدى في الشتاء قاعة واسعة داخل البيت نظيفة الأثاث في غير أناقة ، وهكذا تيسرت له الحياة . وكان هارون بارا به يراعى دائما أن يجعله هو والدة في غير حاجة إلى شيء ، وكان إلى ذلك الحين يلبي أية رغبة لهما حتى وإن لم يديها رغم أنه كان يجهد كل الجهد في الحصول على المال لكثرة الدين . وحين صدر قانون الإصلاح الزراعى كان الحاج حامد يزرع فدادينه الأربعين كلها ولم يكن ماهرا في الزراعة ولهذا أصبحت الأرض مدينة لبنك التسليف بدين ليس هينا وإن كان لا يستغرق الأرض كلها .

وقد أدرك هارون أنه لا يصلح للتعليم في سن باكرة ، ولم يكن أبوه حريصا على إرغامه أن يكمل تعليمه فقد كان قد تبين فيه

هوايته الشديدة للزراعة ، وارتأى أن إشرافه على الأرض سيكون خيرا له من الشهادة ، خاصة وأنه يتعثر دائما في دراسته كما يتعثر أبوه في زراعته .

ترك التعليم وهو في الثالثة الثانوية ، وكانت حتى ذلك الحين تعادل الأولى الثانوية الآن . وبطبيعة الحال لم يتول شأن الأرض منذ بقائه بالبيت وإنما ظلت الأرض تحت رعاية أبيه . وحين صدر قانون الإصلاح الزراعى كان هارون هو فعلا الذى يرعى الأرض ويعامل بنك التسليف ، وما كان على أبيه إلا التوقيع حين يطلب إليه هارون هذا التوقيع .

فحين صدر القانون خشى الحاج حامد أن تصدر قوانين أخرى . ولحسن حظه أو حظ هارون إن شئت أنه لم يكن يؤجر الأرض ولا كان يشارك الفلاحين بالمزارعة فيها ، وإنما كان يزرعها جميعا لحسابه ، وكذلك فعل هارون حين استقل بالإشراف على الأرض .

كان هارون قد شغلته الأرض ورغبة الغنى حتى عن نفسه ، وخاصة أن حالة الزراعة في الفترة التى أعقبت القانون وما استتبعه من إجراءات جديدة في بنك التسليف ، وهبوط أسعار المحاصيل

كل ذلك جعله ذاهلا عن كل شيء ، إلا أن يواجه هذا الطوفان الجديد ، وإن لم يكن خاضعا لأهوال هذا الطوفان .

وهكذا لم يفكر في الزواج إلا بعد ذلك بسنوات ، وربما كان لقاءه . بحميدة هو الذى جعله يتذكر أنه لم يتزوج بعد وأنه قد آن له أن يفعل . وما كان إلحاح أمه عنده إلا كلمة عابرة تلتقطها منه أذن وتفلتها منها الأذن الأخرى . وحين تزوج كانت الليلة الأولى موقفا صعبا بالنسبة إليه وإلى حميدة فى وقت معا . فهو مع خبرته الواسعة فى معاملة الحياة والناس لم يتعود أن يعامل النساء إلا فى نزوات عابرة كانت تتم فى الليالى التى يقضيها بالقاهرة . أما حميدة فموقفها موقف الفتاة الشريفة التى عاشت عمرها كله فى بيت أبيها ، ولا تعرف عن الرجال إلا ما كان زميلاتا فى المدرسة يتهامسن به تهامسا خاطفا لا يكون تجربة ولا يقدم علما ، خاصة وأنها تركت المدرسة فى سن مبكرة . وكانت الليلة الأولى فى بيت المنيرة ، فقد استقر رأى أن يقضوا فيه الأيام التالية للزواج .

و حين خلت بهما الحجرة :

— شرفت منزلك .

— شكرا .

— ٤٩ —

— إن شاء الله سأعمل على أن تكونى سعيدة دائما ولا تحملى
هما .

— أتوقع هذا منك .

— وما الذى جعلك تتوقعينه .

— الذى سمعته عنك والذى رأيته فيك ..

— وماذا سمعت ؟

— أنك حملت مسئولية بيتك وأنت فى سن صغيرة ، وأنتك
جاد فى حياتك وأنتك قادر على جعل الناس يحبونك ..

— الحمد لله ! وما الذى رأيته فى ؟

— رأيتك فى لقاءى الوحيد بك تزن الكلام قبل أن تقوله ،
وتأبى أن تقول كلاما إلا إذا كان له معنى .

— أرجو الله أن تكون حياتى معك محققة لهذه الآراء .

— إن شاء الله .

— قولى لى .

— أقول لك .

— هل تحبين البقاء فى هذا البيت الكبير ، أم نجعل الإقامة
الأساسية لنا فى البلد ؟ فقد قال لى والدك مرة إنكم تحبون أن

(بريق فى السحاب)

— ٥٠ —

تقضوا في الريف بضعة أيام من حين إلى آخر ..
— هذا صحيح .

— ثم إنك في البلد ستجدين أمي وأبي معك دائما ، وهنا
ستكونين وحدك في فترات طويلة ، فأنت تعرفين أن دخلنا
الأساسي من الزراعة ، ولا بد لي أن أكون قريبا من الأرض أغلب
الوقت .

— واضح أنك تريدني أن أقيم في البلد ؟
— ذكاء توقعته منك .

— أنا أواجه حياة جديدة ، وأريد أن يكون أساس معاملتي
لك الصراحة والصدق .
— أحب هذا .

— ولو أنك لا تفعله .

وقهقهه هارون وهو يقول :

— وكيف عرفت هذا أيضا ؟ ..

— واضح أنك بارع في الدوران بالحديث ، وأن لك قدرة على
أن تجعل الرغبة التي في نفسك تعرض عليك من الذي تحدثه ، فيبدو
الأمر كأنه عرض منه هو لا رغبة في نفسك أنت .

— ٥١ —

وقهقه مرة أخرى وهو يقول :

— واضح أنك تحاولين في ذكاء شديد أن تحللي كل جانب من جوانب نفسى .

— أنت منذ اليوم المحور الذى تدور عليه حياتى كلها .

— وأنت أيضا ..

— أشكرك ، ولكن هذا مستحيل فإن لك مشاغلِكَ فى الزراعة وزيادة دخلك ومعاملة الناس . فأنا قد أمثل جانباً هاماً فى حياتك ، فى حين تمثل أنت حياتى كلها .

— ولكن كل هذه المحاور التى قد تشغلنى الهدف منها أن تجعل حياتنا سعيدة .

— إن الرغبة فى الغنى أغلب الأمر تكون غريزة فى النفس ، وإن كانت تحاول أن تبحث لنفسها عن مبررات أخرى .

— ماذا قرأت من كتب

— لا أخفى عليك أنى أحب القراءة والروايات بالذات العربية ، والأجنبية الفرنسية بالذات فقد كنت فى مدرسة فرنسية إلى السنة الثانية الثانوية .

— أعرف ، وواضح أن ثقافتك أكبر بكثير مما حصلته فى

— ٥٢ —

المدرسة .

— وماذا تقرأ أنت ؟

— أنا كما تعرفين لم أكن تلميذا مجدا ..

— هذا لا شأن له بالقراءة .

— أحب أن أقرأ في الاقتصاد ..

— طبعاً .

— ولا أخفى عنك أن قراءتي فيه تجعلني حين أتحدث إلى

أساتذة الاقتصاد الكبار أفهم لغتهم كل الفهم ..

— مؤكد ، وأغلب الأمر أنك تجادلهم مجادلة الند للند .

— الحقيقة لا أشعر أنهم يعرفون شيئاً لا أعرفه .

— ليس هذا بغريب عليك ، فمادمت تقرأ في الاقتصاد فأنت

مثلهم في العلم النظري ، وتزيد عليهم في الممارسة العملية .

— إنك ماهرة جداً في الحديث . لقد استطعت أن تبعدى بنا

عن سؤال الأول ولو أنني أحسب أنني عرفت الإجابة ..

— لا شك أنك عرفتها .

— لك ما شئت ، فلتقيمي إذن في القاهرة .

— ولكن هذا لا يمنع أن أرافقك إلى البلدة حين ترغب في

ذلك .

— اتفقنا .

* * *

توثقت الصداقة بين سعدون والحاج حامد ، فكان الحاج حامد يحرص كل الحرص أن يزور سعدون كلما جاء إلى زيارة زوجة ابنه ، وكان سعدون يأنس إلى الحاج حامد وكان يكثر من زيارته في البلدة ويعود في نفس اليوم حتى لا تفوته جلسة المقهى . وجرت الحياة رخاء في الأسرة الصغيرة الجديدة ، وفي الأسرتين الآخرين اللتين جمعتهما النسب الجديد .

وشاء الله أن يكون زواج هارون خيرا وبركة على بيت سعدون ، فلم تمض إلا شهور ثلاثة حتى تقدم للخطبة وجيدة أستاذ بدرجة مدرس في كلية الحقوق يملك أبواه حوالى عشرين فدانا وهو ابنهما الوحيد ، هو أيضا شأن هارون في عائلة حامد . ولم يكن العريس أمجد حماد قدر رأى العروس فدبرت تحية هانم الأحمدي واسطة العريس اللقاء ، ورضى كل من العروسين عن الآخر . وتم الزواج بعد شهرين من الخطبة ، وسكن الزوجان حى الجزيرة ليكون الزوج قريبا من الجامعة . ولم تمر سنة حتى رزقا بهناء ثم مرت سنة أخرى ورزقا بأيمن .

* * *

٦

ما هذا الذى حدث ؟ كيف استطاع هارون أن يجحد فضل أبويه هذا الجحود ؟ لقد أصبح لا يزورهما إلا فى القليل النادر حتى إنه كان يزور القرية ويمر بالأرض ولا يلقى والديه وإنما يذهب إلى مزارعه الأخرى .

ربما زارهما مرة فى الشهر ، أو قد يمر شهران أو أكثر ولا يراهما ! وكأنما كان الحاج حامد يتوقع هذا ولكن الحاجة توحيدة كانت تعيسة بهذا التجاهل من ابنها تعاسة فاجعة .

وكان هارون قد دأب أن يسهر مع حميه سعدون ، ولكنه كان لا يشرب معه إلا فى القليل النادر . وفى هذه السهرات تعرف على عبد المجيد زين الدين ، وكان زين الدين مشهورا أنه من كبار الأغنياء .. وفى ليلة سأل هارون :

— ماذا تزرع يا هارون ؟

— أحاول زراعة الموالح .

— ٥٥ —

— تحتاج إلى صبر طويل وإنفاق كبير وخبرة عميقة .

— وماذا ترى سعادتك ؟

— أتعرف مكتبى فى شارع قصر النيل رقم ١٤ .

— عظيم .

— تمر على غدا الساعة الثانية عشرة .

قال له فى المكتب :

— عندى لك زراعة تكسب منها مبالغ خيالية .

— خيرا ؟

— الأعشاب الطبية .

— سمعت عنها ، ولكن كيف أبيعها ؟

— هذا عملى ، فأنى متعاقد مع شركات أجنبية وإنى سأشترى

منك المحاصيل كلها وسأدلك على محلات التقاوى وكيفية

الزراعة ، وأدفع لك مقدم ثمن المحصول حتى لا تتكلف أنت

وحدك الإنفاق عليها . وتستطيع أن تبقى فى نفس الوقت على

أشجار البرتقال ..

— شىء عظيم .

— نكتب عقدا ؟

— ٥٦ —

— عشرة عقود إذا أردت .

— سنكتب عقدا واحدا على أربعة أنواع من الأعشاب . وبعد
أن تجرب الزراعة نزيد العقود إن شاء الله .

— وهو كذلك ..

وكانت فاتحة خير عميم على هارون ، فقد بدأ يزرع هذه
الأعشاب وبرع في زراعتها براعة فائقة ، واستطاع أن ييقى
أشجار الموالح في الأرض وكسب آلاف من الجنيهات .

* * *

ومرت سنوات ازدادت فيها ثروة هارون زيادة فائقة ، وأنجب
في خلال هذه السنوات (شهاب) (وفائق) من بعده ، وطبعا
فرح بولديه ولكن فرحه بالمكاسب كان أكبر . وكانت حياته في
البيت هادئة مطمئنة ، ولم يكن ازدياد ثروته مفاجأة لحميدة فقد
كانت تعرف رغبته العارمة في الغنى والاستكثار من الأموال .

* * *

لم يكتف هارون بالمكاسب التي كانت تدرها عليه عقود مع
مكتب عبد المجيد زين الدين ، فتأقت نفسه إلى مكاسب أعظم
حتى وإن ضحى بمن كان سببا في هذا الغنى الذى بلغه ، فراح

— ٥٧ —

يغدق المال على رفعت فواز سكرتير عبد المجيد زين الدين وقد كان
مثله شرها للمال، وفي يوم ..

— قل لى يا رفعت !

— تحت أمرك يا هارون بك .

— لو طلبت منك شيئاً ؟

— لا أتأخر .

— أسماء الشركات التى يتعامل معها عبد المجيد زين الدين فى
الخارج .

— آه .. وماذا تصنع بها ؟

— مجرد علم .

— هارون بك أنت رجل ذكى ، فأرجوك لا تظن أن
الآخرين أغبياء .

— أعطيك عن اسم كل شركة خمسمائة جنيه .

— ألف .

— ألف .

وعرف الأسماء وعناوينها ، وسافر إليها واستطاع فى سهولة أن
يغرى الشركات بالتعاقد معه على أن يكون وكيلها فى مصر وفى

— ٥٨ —

الشرق الأوسط كله ، وقد كان واثقا من نجاح عروضه لأن
الأسعار التي قدمها كان فيها للشركة أرباح أكبر مما يحققه لها عبد
المجيد زين الدين .

ولم يهم هارون أنه قطع مورد الرزق الوحيد الذي كان يعيش
عليه عبد المجيد زين الدين ، ولم يهمه أيضا أن الحياة سترغمه على
لقائه ، فعند المال كل شيء مباح وكل شيء يهون .

كان لقاؤه بعبد المجيد زين الدين في المقهى مع سعدون . ولم
يقل عبد المجيد شيئا أول الأمر حتى إذا شرب كأسه الثالثة وسرت
حمياه في دمائه .

نظر إلى سعدون :

— سعدون .

— أفندم ؟

— أهنتك .

— خير إن شاء الله .

— لقد زوجت ابنتك الكبرى لأسفل رجل في العالم .

— أعوذ بالله لماذا هذا ؟

وقال هارون :

— ٥٩ —

— لا عليك يا عمى ، فإن الخسارة مؤلمة .

فقال سعدون :

— هل تسببت فى خسارته ؟

وقال عبد المجيد :

— خسارة هينة .. خرب بيتى تماما

وقال سعدون :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. لماذا يا هارون ؟ لماذا يا ابنى أنت

غير محتاج .

وقال هارون فى تحد وصلافة وجمود وجه :

— السوق لا يعرف إلا من يفهمه .

وقال عبد المجيد فى ثورة مكبوتة .

— بلا شرف ؟

— هذه ألفاظ لا شأن لها بالسوق .

وقال سعدون :

— بل التجارة شرف يا ابنى .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال هارون لينهى المناقشة .

— أستاذن أنا .. سلام عليكم .

— ٦٠ —

وقال عبد المجيد .

— الله يخرب بيتك كما خربت بيتي .. مع السلامه . ولماذا
السلامة ؟ مع الموت والخراب إن شاء الله .

وانصرف هارون .. وتجهم المجلس .. وقال سعدون :
— لا علينا ، نعود إلى ما كنا فيه .

وعندما حان انصرافهم همس سعدون في أذن عبد المجيد .
— انت بكرة في المكتب .

— إن شاء الله .

— انتظرني الساعة الثانية عشرة .

— أهلا وسهلا .

سعدون في طبيعته هادئ خجول ، ولعل كثرة قراءته زادت
من خجله هذا .

لا يزول عنه خجله إلا حين يشرب . وكان في مجلسه من عبد
المجيد أسيفا يكاد الحياء يرتج شفثيه ، ولكنه كان مصمما أن يقول
ما يريد قوله .

— أنا آسف .

— وأنت ما ذنبك ؟

— ٦١ —

- على الأقل عرفته عن طريقى .
- كان يمكن أن أعرفه عن طريق أى إنسان .
- على كل حال أنا أشعر كأنى أنا المذنب .
- الأمر لله .
- أنا لا أستطيع أن أعوضك عن الخسارة التى لحقت بك ،
- ولكننى أرى من واجبى أن أخفف وقعها عليك .
- أنا شاكر مشاعرك على كل حال .
- المشاعر فى هذه المواقف لا تعنى شيئا .
- لا يملك الناس غيرها .
- عبد المجيد .. لك عندى فى كل شهر مائتا جنيه .. كنت
- أتمنى أن أقدم لك أكثر ولكن ..
- ما هذا الذى تقول ؟
- ما سمعت .
- وكيف أقبل ؟
- لتفكر أولا كيف تعيش مستورا .
- وصمت عبد المجيد وأطرق ، ولم يستطع أن يرد دمتين تحدرتا
- على وجنتيه .

— ٦٢ —

— لا أستطيع فى حالتى التى أنا عليها اليوم أن أمتنع ، فإن تكن
كرامتى ترفض فحاجتى تلح .
— أخوك ويقف إلى جانبك .
— ونعم الأخ !
— سلام عليكم .
— مع ألف سلامة مع الشكر .. لا أستطيع ..
واختنق مرة أخرى بالبكاء .
— السلام عليكم .

* * *

ولم يقل سعدون شيئا لهارون عما صنعه مع عبد المجيد ، فكان
شأن هارون عجيبا معه فقد زاد من المبالغ التى كان متفقا عليها معه
ومع حماته دون أن يطلب ذلك . ربما لأنه كان يعلم أن إباحة
الأرض له ليزرعها قائمة على توكيل من صاحبسى الأرض
الصوريين ، فكان فى مقدور سعدون وزوجته أن يأمرأ عطا الله
أفندى والحاج وافي بأن يسقطا التوكيل عن هارون كما يسقطه
عنه سعدون نفسه . وإذا فقد هارون هذه الأرض فإنه يفقد شيئا
ليس هينا ، ولو أنه استولى بنفس الطريقة على أراض أخرى

كثيرة ، أصحابها يقيمون بعيدا عنها ولا قدرة لهم على مواجهة الزراعة ، ولكن مساحة الأرض المتاحة له من حميه وحماته ليست بالشىء القليل ، وهو أيضا حريص إلا يسئ إلى بيته ، ولا ينقصه من ناحيته منغص . فلو أن حماته وحماه لم يرضيا عنه لأثار هذا مالا يحب له أن يثور من مشاكل فى بيته .

أما أبوه وأمه فلا يستطيعان أن يثيرا مشاكل فبخل عليهما بخلا شديدا ، فكانت تمر شهور لا يرسل إليهما مالا مع علمه أن لأبيه ريع أرضه التى استولى عليها ، وله أيضا بيته الذى يقيم فيه ، وإن يكن قد جمل بيت أبيه هذا وأثثه بأفخر الفراش إلا أنه يظل مع ذلك بيت أبيه .

الوحيد الذى كان يزور حامد وزوجته من القاهرة هو سعدون ، وقد أصبح يصحب حفيديه (شهاب) (وفائق) ليزورا جديهما ويمرحا فى القرية فى كل يوم جمعة . وأنس الطفلان إلى الجددين أنسا شديدا . وكان المال الذى يرسله إليهما هارون كلما تذكرهما لا يكاد يفى بما يحتاجان إليه من طعام وملبس ودواء فكانا فى ضيق مالى شديد لم يخف أمره على سعدون ، وكان حائرا ماذا يستطيع أن يفعل إلا أن يأتى فى كل أسبوع بهدية

— ٦٤ —

كبيرة نافعة للأبوين المهجورين ، فأحيانا يأتي لهما بطعام وفير أو يأتي لهما بملايس ، وكانا يقبلانها في إذعان يقرب إلى الذلة .
وتعرف سعدون في هذه الزيارات على أصدقاء حامد جميعا ■
وأنس إليهم وأحبهم .

مرضت الحاجة توحيدة وعادها طبيب الوحدة وهو صديق فلم يقبل أن يتقاضى أجر الزيارة . ولم يكن المرض خطيرا ولكنه كان يحتاج إلى دواء على أية حال . وليس معهما ثمن الدواء واضطر الحاج حامد كارها حزينا أن يطلب ابنه في التليفون ويخبره أن والدته مريضه .

— مريضة بماذا ؟

— المصران الغليظ .

— بسيطة .

— الحمد لله .

— على كل حال سأحضر قريبا لأراها .

— أهلا بك .

واستكبر الأب أن يقول لابنه أرسل الدواء ، ووضع سماعة

— ٦٥ —

التليفون . ورأت الأم ما ارتسم على وجهه من أسى وشجن
وحزن ، وقامت من فراشها وما هي إلا لحظات حتى عادت :
— حاج حامد .

— نعم يا توحيدة .

— لا تحمل الهم أبدا . خذ هذا الكردان .

— حتى المصاغ القليل الذى تملكينه ستبيعيته هو أيضا .

— بيعه خير من أن يرثه ابن لنا جحد أبويه . بعه يا حاج

حامد .

ما فائدة المصاغ إن لم يكن عوننا عند الشدة . فما دمنا فقدنا
ضمير ابننا فلا بأس علينا أن نستعين بمصاغنا .

وأخذ الحاج حامد المصاغ ، ولم يكن معه أجر السيارة إلى
الزقاريق أو القطار إلى القاهرة فراح يفكر فى الأمر .

ترك الحاج توحيدة فى مجلسها وخرج يخلو بنفسه فى غرفة
الاستقبال ، ولم يتح له مختار عمر أن يخلو إلى نفسه طويلا :

— سلام عليكم !

وفى صوت هادئ ليس فيه رنة الترحاب التى تعودها مختار

منه :

(برىق فى السحاب)

— ٦٦ —

- أهلا .
- مالك ؟
- لا شيء .
- بل هناك أشياء .. أنت تحمل هما ثقيلًا .
- ومن فيها مرتاح يا مختار ؟
- المؤمن .
- نحمده ، فبالإيمان نحتمل الحياة .
- كنت مسافرا إلى القاهرة ، ولكنني لا أستطيع أن أتركك على هذه الحال .
- أنا كنت ذاهبا أزور الأولياء وبعض أقاربي .
- كتر خيرك .
- ثم وضحت في ذهنه فكرة :
- مختار ، أنا أريدك أن تذهب إلى القاهرة .
- أسافر .. أسافر حتى ولو لم أكن ناويا للسفر ، فما بالك وأنا أنتويه .
- الحاجة عندها قطعة مصاغ تريد أن تبيعها لتشتري بئسها
- قطعة أخرى رأتها عند إحدى السيدات اللاتي يزرنها .

— ٦٧ —

— وماله ؟

واعترضت قلب مختار يد قاسية كبت آثارها أن تبدو على وجهه ، فما يدري هل وفق إلى ذلك أم لم يوفق ، وإنما قال كلمته السريعة ثم صمت لحظات يكتم إجهاشه بكاء تعتصر فؤاده ، حتى إذا استوثق أن صوته لن يخونه قال :

— هاتها .

— هاكها .

فأخذ الكردان ووضعها في جيبه وقام .

— أقوم أنا لأعود مبكرا .

— مع السلامة .

* * *

حين نزل مختار إلى القاهرة توجه من فوره إلى الصاغة وعرض الكردان للبيع ، فكان أكبر ثمن له ثلاثمائة جنيه . فأعاد إلى جيبه وقبل أن يغادر الدكان الذى كان فيه بحث في دفتر التليفون وعثر على الرقم الذى يريده وأدار القرص به .

— منزل سعدون بك ؟

وجاءه صوت سعدون .

— ٦٨ —

- نعم أنا هو ، من الطالب ؟
— مختار عمر صديق الحاج حامد .
ورحب به سعدون :
— يا أهلا يا مرحبا أين أنت يا مختار افندى ؟
— أنا هنا في القاهرة وأريد أن أشوفك .
— يا مرحبا نتغدى معا اليوم .
— أعفنى من الغداء . أريد أن أرجع اليوم .
— تعال أولا ثم نتكلم فى موضوع الغداء .

* * *

وقص عليه قصة الكردان ومرض الحاجة توحيدة ، وأطرق
سعدون طويلا وقد تمزقت نياط قلبه .. ألهذا نأتى بمن يخلفنا ؟..
أنهب لهم مالنا وأنفسنا ليجعلوا منا حطاما من البشر ؟ . وفكر
كثيرا .. كيف سيصل بالمال إلى حامد دون أن يعرف حامد أنه
منه .

وحين طال الصمت خشى مختار أن يكون قد جاء إلى من لا
يعنيه الأمر ، وأنه أخطأ المقصد والمتجه فزاد حزنه ، بل أضيف
إليه الخجل من نفسه والأسف أنه أذاع سر صديقه بغير داع إلى

— ٦٩ —

ذلك وقال :

- سعدون بك كأنى لم أقل لك شيئا .
- وأفاق سعدون من أحزانه وقال فى حدة :
- يا أخى انتظر ، أو فكر معى على الأقل .
- أفكر .. فىم أفكر ؟
- ألا تدرى فىم تفكر ؟
- لا والله . بل ولا أدرى أن المسألة تحتاج إلى تفكير ..
- شأنك عجيب يا مختار أفندى .
- هل، شأنى أنا هو العجيب ؟
- أم تراك تظن أنه شأنى أنا هو العجيب .
- والله نعم . أظن أن شأنى أنا ليس عجيبا . صديق لك فى
- محنة وقصدت إليك .. فبدلا من أن تدفع عنه هذه المحنة
- تصمت ..

- وهل هى محنة واحدة ؟
- الموجود حاليا محنة واحدة .
- بل محن كثيرة .
- كثيرة ؟

— ٧٠ —

— المحنة الأولى جحود ابنهما لهما . والمحنة الثانية كيف نقدم المال لهذين العظيمين ؟ إنهما ليسا فقيرين من الذين تعودوا مد أيديهم للناس وابنهما من كبار أغنياء مصر .. أما مسألة الكردان هذه فلا قيمة لها .

— كيف ؟

— سأعطيك المبلغ وآخذ الكردان ، وأجعل الحفيديس يشتريان لجدتهما قطعتين من الذهب ضعفى ثمن هذا الكردان ، على أن يكون ذلك بعد شهر أو أكثر حتى لا يظننا بالهدية منهما ظنا لا نريده أن يخطر على بالهما .

— نعم التفكير .

— كيف نقدم لهما هذا المال بعد ذلك .. تلك هي المحنة

— ونعم الأخ أنت يا سعدون بك .

— قل هل عندكم مكتب يريد .

— عندنا .

— إذن حلت .

— كيف ؟

— لا شأن لك .. انتظر حتى آتى لك بـشمن الكردان . تقول .

— ٧١ —

ثلاثمائة جنيه ؟

— نعم .

— ولكنك تستطيع أن تقول إنك بعته بأربعمائة .

— أنعم وأكرم !

ومنذ ذلك اليوم كانت تصل الحاج حامد شهريا خطابات
مسجلة بمبلغ ثلاثمائة جنيه مع بطاقة باسم هارون حامد بركات ..
و لم يقف المبلغ عند هذا الحد بل كان يرتفع مع زيادة الغلاء حتى
بلغ بعد سنوات ستمائة جنيه في الشهر ، ولم ينس في نفس الوقت
عبد المجيد ، فقد كان يزيد له المبلغ الشهري حتى يواجه الغلاء
الذى يغرفاه المتوحش على الناس ،

* * *

٧

لم يمل الحفيدان شهاب وفائق زيارة جديهما حتى بعد أن أصبحا شابين يستميلهما ما يستميل الشباب من متع وانطلاق ، فقد كانا يجدان عند جديهما وجدتهما نوعا من الرعاية والحب لا يجدا في ظل أبيهما .. وإن وجداه من أهمهما .

دخل شهاب كلية الهندسة ودخل فائق كلية التجارة ، وكانا جادين في الدراسة جدا يمكنهما دائما أن يحصلوا على درجة مشرفة . وكان سعار المال يزداد تحكما في والدهما يوما بعد يوم ، فالأرقام لا نهاية لها ، وجمع المال عند بعض الناس غريزة في ذاته ، قد يدعى المسعور منهم أنه إنما يجمع الأموال لأولاده أو يجمعه ليتقى فجاءات الحياة . كذب هذا جميعه وأشباهه ، فهارون قد أصبح من الغنى بمكان يندر أن يصل إليه أحد ، وأصبح واثقا أنه يستطيع أن يواجه الحياة حتى آخر الحياة ، بل إن ابنيه وزوجته أصبحوا في مأمن من ريب الفقر ، بل إنهم من بعده سيصبحون من أعظم

الأغنياء ، وكذلك الأحفاد حين يأتي الأحفاد . ولكن هارون لا يكتفى ولا يهدأ أو يستريح . فجمع المال في ذاته هو حياته وكل ما يسعى له . أما ولداه فقليلا ما يراهما . ونادرا ما يعلم ماذا هما صانعان بحياتهما ، وإنما يعرف خبر نجاحهما ضمن سائر الأخبار التي تلقىها إليه حميدة فيما تلقى إليه من أخبار حين يجتمع بها الليل بعد يوم طويل هو فيه دائما ملهوف على زيادة ثروته .

والذى لا يعنى بولده ليس عجيبا ألا يعنى بوالديه . قد يتذكرهما فجأة فيطلبهما في التليفون وما داما لا يطلبان مالا في المكالمات فإنه يطمئن نفسه بل هو لا يريد أن يسأل نفسه من أين لهما بالمال .. فإن سمحت نفسه وكان في حالة نفسية مريحة أرسل إليهما بعض المال ، متصورا أن فيما يرسل من حين إلى حين غاية الكفاية ليعيش والداه . في يوم من الأيام النادرة في حياة هارون جلس إلى أسرته على مائدة الغداء . وفجأة قال شهاب :

— أبى لماذا لا يأتي جدى وجدى ليعيشا معنا ؟

وكأنما كان السؤال لكمة أصابت رأس هارون ، فصمت حيناً ثم قال :

— جدك له أصدقاؤه في البلدة ولا يجد السعادة في البعد

— ٧٤ —

عنهم ، كما أنه لا يجب أن يغير بيته لا هو ولا جدتك ، وقد علت
بهما السن ومن الصعب أن يغيرا مكان الإقامة في سنهما هذه .
وانقض عليه فائق :

— ولماذا لا تذهب أنت إليهما ؟

وأطرق هارون حائرا في غير خجل ، فمثله لا يعرف الخجل .
— يافائق أنا لا أراك إلا في القليل النادر ، فكيف تطلب مني أن
أذهب إليهما ؟ .

— لا يمكن أن يتركها هكذا .

— أنا أطلبهما بالتليفون كلما وجدت فرصة .

ويقول شهاب :

— لا نستطيع أن نتصوركم يفرحان حين لذهب إليهما مع
جدى سعدون كل أسبوع . أو حتى حين يتخلف جدى عن الذهاب
ونذهب أنا وفائق إليهما .

— هذا طبعى .

ويقول فائق :

— ولكنى يا أبى أجد سحابة حزن تغشى وجهيهما كلما
سألانا عنك .

— ٧ —

وصمت ثم قال فى محاولة لإقفال الموضوع :

— الحقيقة أنا مقصر .

— هل تذهب معنا يوم الجمعة القادم ؟

— لا أستطيع أن أعدك الآن ، فأنا لا أعرف مواعيدى .

وأطرق الشابان وقالت حميدة :

— لماذا لا تذهب يا هارون ؟ إن هذا سيفرح ولديك

وأبويك ، بل ويفرحنى أيضا فأنا مشوقة إليهما . سنوات طويلة لم نرهما .

— لا أستطيع أن أعرف مواعيدى وأنا معكم فى البيت .

سأرى مواعيدى .

ورأى مواعيده ولم يذهب . أترأه كان يخشى اللقاء بعد هذا

البحود الطويل منه ؟ ربما وإن كان هذا بعيدا عن خلقه .

كانت الحياة فى بيت هارون رغبة سعيدة ، فهو حريص ألا

يشغل نفسه بمناقشات داخل البيت ، فكل ما تطلبه حميدة أو ولداه

مجاب . فلم يكن غريبا أن يكون لكل منهم سيارة خاصة ، وأن

تكون النقود فى أيديهم كافية دائما لما تتوق إليه نفس أى واحد من

ثلاثتهم .. ولكن الثلاثة جميعا كانوا يشعرون أنهم لا يعيشون كما

— ٧٦ —

يعيش الناس ، وأن هناك شيئاً كبيراً يفتقدونه فيفقدونه . وكانوا لا يخفون هذه المشاعر عن بعضهم البعض ، فكان شهاب يقول دائماً .

— لقد حول أبونا أبوته إلى نقود واستراح .

وكان فائق يجيبه :

— إنه يملك المال ، وكل عاطفته منصرفة إليه . أما نحن فلنأخذ ما نريد على شرط واحد ، ألا نزعجه بأى أمر من أمورنا

وتقول حميدة فى محاولة لإرضاء ابنها :

— وماذا تريدان .. ماذا ينقصكما ؟

ويقول شهاب دون ريث من تفكير :

— ينقصنا أب .

وتصبح حميدة وهى تعلم أنها على غير حق .

— أظال الله عمره ! يعنى هو مشغول كل هذا الشغل من أجل

من .. أليس من أجلنا ؟

ويقول فائق :

— أبدا .. إنه يعمل ليل نهار ليشبع هوايته فى جمع المال .

وتقول حميدة :

— ٧٧ —

— هل تأخر عنكما في شيء ؟

ويقول شهاب :

— أتعرفين يا أمى أننا لولا جلوسنا مع جدنا سعدون وجدنا حامد ما عرفنا أى شيء عن الحياة ولا المبادئ ولا القيم . فهذه أشياء لا نتعلمها من المدارس أو الكليات ، ولا يستطيع الشباب في مثل عمرنا أن يحدثونا عنها .

وتقول حميدة :

— والله يا بنى لا يصدق عليك إلا ما يصدق على البشر كلهم . إن أحدا منهم لا يرضى عن حاله أبدا ، وكل إنسان يبحث في داخله عما يتعسه أكثر مما يبحث عما يسعده .

ويقول شهاب :

— أهذا رأيك ؟

— وما رأيك أنت ؟

— رأى أن الحياة العامة ممارسة ، ومعرفة الناس وتجاربهم ثروة أكبر من ثروة المال .

ويكمل فائق :

— ونحن شباب في يدنا المال ، وحتى أصدقائنا في الكلية

— ٧٨ —

يتقربون إلينا لننقق عليهم فما ندرى من منهم الصادق ومن المنافق .

ويقول شهاب :

— نحن أكثر الناس حاجة إلى أبيينا كإنسان .. لا كأموال .

وتقول حميدة :

— أجربتم القراءة ؟

ويقول فائق :

— قليلا ما نقرأ ، ولكن القراءة وحدها لا تكفى . قد تهب لنا

الثقافة ولكنها لا تهب لنا الخبرة .

ويقول شهاب :

— لا تعجبنى يا أمى إذا ضل بنا الطريق ، ووقعنا فى أخطاء لا

يجدى المال فى تلافئها .

وبقلب الأم تصبح حميدة :

— يا ابنى قل وغير .. لا قدر الله ولا كان .

— أخاف يا أمى .. أرجو ألا يقدر الله . ولكن إذا ضللنا

فسيكون الخطأ من طريقة عيشنا لا من شيء آخر .

* * *

٨

كان سعدون في بيته بجاردن سیتی الذي لم يغيره منذ زواجه .. ولم يكن بحاجة أن يغيره فقد كان المال وافرا عنده من ريع الأرض الذي كان يزيد زيادة فاحشة . كما أنه أصاب مبلغا يزيد على مليوني جنيه حين آلت عمارة عابدين للسقوط وقررت الجهات المختصة إزالتها حتى لا تنقض على من بها ، ورأى سعدون أن يبيع أرضها خير له من إعادة بنائها . وكانت العمارة مقامة على حوالى ألف متر ، وكان سعر المتر في هذه المنطقة قد تجاوز الألفى جنيه .. فباع الأرض بما يزيد على مليوني جنيه وبذلك أصبح موفورا في ماله السائل ، كما كان موفورا بأرضه وأرض زوجته وفيّة الذي وصل إيجار الفدان فيها إلى ألف جنيه في العام ، كان يدفعها لها هارون راضيا فقد كان يكسب من الأرض أضعاف هذا المبلغ .

جاء الخادم يبلغه أن عبد المجيد زين الدين بالدور الأول يرجو أن يلقاه ، فتعجب سعدون لهذه الزيارة المفاجئة فقد كان لا يرى

عبد المجيد إلا في أول كل شهر ليسلمه المبلغ الذى تعهد أن يقدمه إليه والذى زاد إلى أربعمائة جنيه في السنوات الأخيرة . كان مرتديا ملابسه فنزل من فوره إلى غرفة الاستقبال في بيته :

— مرحبا عبد المجيد بك !

— أهلا بالرجل العظيم !

— وبعد لك ؟ إنك دائما تخجلنى .. قهوتك مضبوطة أليس

كذلك ؟

— نعم .

وطلب سعدون القهوة لضيفه الذى ظل شبه صامت لا يتكلم ، وإذا تكلم لا يتكلم إلا عن الجو والصحة وأولاده ، وهذه الأحاديث لا تعنى شيئا وكلما تكلم ازدادت دهشة سعدون من هذه الزيارة التى لم يتصور أن يكون المراد منها مجرد الحديث عن الجو والصحة والأولاد . عرف من الأحاديث أن إلهام حفيدة عبد المجيد من ابنه وجدى أصبحت في السنة الثالثة من كلية التجارة ، وأن حفيده نبيل من ابنه إسماعيل في السنة الرابعة من كلية الطب ، ولكن ماذا يعنى هذا ؟ إن هذه الأنباء نفسها ليست جديدة عليه فهو على صلة شهرية في الصباح بعبد المجيد ، شهرية في الصباح وتكاد

تكون شبه يومية في مقهى الهيلتون الذى انتقلوا إليه بعد أن هدمت
 الأنجلو . وكان عبد المجيد قد أقلع عن شرب الخمر وأصبح أقرب
 ما يكون إلى التصوف ، لكنه كان يحب الجلوس إلى من بقى من
 أصدقاء الأنجلو في مقهى الهيلتون ، يتبادلون الحديث ويعلقون على
 الأحوال الاقتصادية والمالية ، ويفرج المكروب عن كسره ،
 ويترحمون على الأيام الخوالى ، ويتناقلون أخبار بعضهم البعض .
 إنها زيارة غريبة .. ماذا حدث للرجل ؟ إن الزيارة المنزلية لم
 تصبح سمة العصر . ماذا يريد الرجل ، وفيه هذا الحديث الذى لا
 جديد فيه ؟ وشرب عبد المجيد القهوة ورشف رشفة من الماء :
 — لا تعجب كثيرا من هذه الزيارة .

— البيت بيتك وتشرف في كل وقت ..

— مرت حوالى عشر سنوات منذ اليوم الذى تفضلت فيه ..
 وقاطعه سعدون :

— وبعد لك يا عبد المجيد بك . ما معنى هذا الكلام ؟

— اسمعنى إلى آخر حديثى .

— تحت أمرك ..

— بعد النكبة التى أنزلها بى هارون ظللت قرابة سنتين وأنا لا

مورد لى إلا ما آخذه منك .

— وبعد معك ؟

— اسمعنى . كانت سنوات مظلمة ، وكان الأولاد بالمدارس
وبغير ما كنت آخذه منك الله وحده يعلم إلى أى مصير كنت
سأرمى . فى السنة الثالثة لا حت لى فرصة تجارية بدت فى أول
أمرها ضئيلة الموارد ، فقلت فى نفسى أبلغك وأتوقف عن أخذ
المبلغ الشهرى منك ، ولكننى راجعت نفسى . ماذا أفعل إذا لم
ينجح المشروع ؟ ورأيت أن أنتظر قليلا . كان المشروع تجارة
أخشاب ، وكبر المشروع وأصبح المال الذى أناله منك غير ذى
موضوع . لكننى فكرت قليلا .. فوجدت أن المبالغ التى تعطىها
لى ، أنت لست فى حاجة إليها ، فقد كنت أعرف أن إيجار أرضك
يزيد دائما ، وأنتك بعت أرض عابدين فكان همى الوحيد كيف
أرد لك فضلك ؟ وجدت أن أحسن ما أستطيع أن أصنعه أن
أستمر فى أخذ المبلغ منك وأستثمره فى مشروعى وكأنك شريك
معى بما تقدمه لى كل شهر . واعتبرت نفسى كأنى أدخر لك ..

— ماذا ؟

— اسمع .

— ٨٣ —

- لا أسمع شيئا وهل هذا معقول ؟ .
- بل هو المعقول . في هذه الحقيقة نصف مليون جنيه هـى أرباحك التى كسبتها مما قدمته إلى فى هذه السنوات .
- ووقف سعدون ذاهلا وهو يصيح :
- ماذا تقول يا رجل ؟ هذا المال نتيجة جهدك وعملك .
- ولكنه مالك أنت ، وكل ما فعلته أننى أشركتك معى ..
- وجهدك ؟
- كنت سأقوم به على أية حال ، سواء كان مالك أو لم يكن مالك .. إنه كان يدخل ضمن إيرادى .. أليس كذلك ؟
- كيف أقبل هذا ؟
- هذا ربح حلال ، وأنت تعرف أننى الآن أؤدى الفروض جميعا ، وهذا المال زكاته مدفوعة وعلم الله ليس فيه مليم من حرام .
- لا يمكن أن أقبل هذا .
- لقد كنت كريما وأنت تعطى ، فاسمح لمن أخذ أن يكون على درجتك من الكرامة ..
- أترضاها لى ؟ ..

— ٨٤ —

— أو ترضى أنت لى أن أستحل مالك فى أسود أيام عمرى «
ولا أرد لك الفضل بعد أن أكرمنى الله هذا الإكرام ؟ .
— ولكن أنا لم أقدم إليك ما قدمت لتتاجر لى فيه ، بل لم أكن
أتوهم هذا ..

— ولكننى أخذت منك ما أخذت فى السنوات الأخيرة
كلها ، على نية التجارة بها باسمك ..

— فلو كنت خسرت ماذا كنت تصنع ؟ ..

— لو كنت خسرت لظلمت أتقاضى منك ما خصصته لى ،
وتكون أنت قد خسرت مالا كنت تتبرع به .
— والله ...

— يا سعدون بك من الكرامة أن تعين الآخرين على حفظ
كرامتهم ..

— هذا معنى جميل .

— إنه حق .

— إذن فاسمح لى أن أشعر أننى أسمو إلى المكان الذى وضعتنى
فيه .

... ألم تستر فقرى ، وأتحت لى العيش كريما على نفسى

— ٨٥ —

وأولادى وعلى الناس فى سنوات ما كنت أدرى فيها كيف أواجه
الحياة ؟ .. أستاذنا أنا .. سلام عليكم .

وقام الرجل من مجلسه وسعدون ما يزال فى حالة ذهول ..
وقف وهو يقول :

— انتظر .

— لم يبق عندى ما أقوله ..

— هذا المال ليس حقى ..

— بل إنه أقل من حقك .

واتجه إلى الباب وهو يقول :

— سلام عليكم .

وخرج وسعدون فى ذهوله لا يزال ..

ثم جلس وهو يقول فى صوت مرتفع :

— أيمكن هذا ؟ .. هل هناك ناس مثل هذا الرجل ؟ .. اللهم

أحمدك يارب .. إنك أرحم بعبادك من أن تتركهم وليس فيهم مثل
هؤلاء العظماء .

٩

- انتهى اليوم الدراسى فى كلية الهندسة ، وخرج شهاب من
الكلية وبرفقتة صديقه حلمى فؤاد واتجها إلى سيارة شهاب ..
- إلى أين يا شهاب ؟
- إلى البيت ..
- ماذا تصنع فى البيت ؟
- ما يصنعه خلق الله فى بيوتهم .
- يا أخى لقد تعبنا اليوم . لماذا لا نتغدى فى أحد المطاعم
ونقضى يوما ممتعا .
- لا مانع .. انتظرنى فى السيارة حتى أكلمهم فى البيت ..
- أترى ذلك مهما ؟ .
- حتى لا أشغل والدتى .
- على كيفك . ولو أننى فى بيتنا أعود حينما أريد ، ولا
يسألنى أحد أين كنت .
- المسألة ديتها تليفون ..

— ٨٧ —

— على كيفك .

وحين عاد شهاب سأل حلمى :

— أتعرف مطعما معيناً ؟ ..

— اطلع ..

وعلى الغداء قال حلمى :

— قل لى يا شهاب ، ألم تتصل فى حياتك بالبنات ؟ ..

— اتصالات عابرة .

— مثل ماذا ؟

— ما تيسر .

— ألم تذهب إلى بيت من بيوت المتعة ؟

— أسمع عنها ولكنى لم أرها .

— هل من المعقول هذا ؟

— أتراه غير معقول ؟ ..

— لو أن الشباب جميعهم مثلك لخربت هذه البيوت ..

— ياليتها تخرب .

— اسكت .. أنت لا تعرف شيئاً ..

— أعرف ماذا ؟ ..

— ٨٨ —

- هناك ينسى الإنسان نفسه .
- وينقلب إلى حيوان .
- وما البأس ؟ .. أليست الحيوانية جزءا منا ؟
- جزء بغيض .
- على أساسه تبقى الحياة .. لولاه لفنى البشر .
- هذا فى الزواج ..
- ولكننا قبل الزواج شباب .. ولا بد أن نجرب الحياة .
- أتظن ذلك ؟
- بل أنا واثق ..
- أذهبت أنت إلى بيت من هذه البيوت ؟ .
- مرتين فى حياتى ، وهذا لقلة المال طبعاً ، فلو كان معى مال
- لذهبت إليها يوميا .
- أين هذا البيت ؟
- ما رأيك نذهب الليلة . هل معك فلوس ؟
- معى ..
- إذن نلتقى فى التاسعة ونتمشى بالسيارة قليلا ثم نذهب ..
- والله لا مانع ..

والتقيا ، وذهبا وواجه شهاب حياة جديدة عليه ، سعد ببعضها وتفرز من بعض آخر فيها ..

النساء عرايا ، وصاحبة البيت عجوز تفعل بوجهها الأفاعيل لتبدو في غير سنها ، وفي البيت صمت كئيب على غير ما تصوره الأفلام المصرية ، الهمس هو صوت المتحدثين ، والغمز بالعين الواحدة إشارات كأضواء خجلى لا تنطفئ ولا تنير .. وقلة قليلة من رجال لا يعرف أحدهم الآخر .. وإنما كل منهم في شأن يغنيه ، يجلس في صحبة كأس يحسوها في توتر شديد ..

ألح حلمى على شهاب أن يشرب كأسا من الويسكى ، وأطاعه آخر الأمر ولكنه لم يكمل الكأس ، فذوقه رفض طعم الشراب ولم يجد له تلك النشوة التى سمع بها .

وحين خرج من البيت كان يشعر بشيء من الخجل والغضب من نفسه .

يحرص (فائق) على الذهاب إلى الكلية كل يوم رغم الزحام الشديد ، ورغم أنه لا يستفيد شيئا من المحاضرات التى يلقيها الأساتذة ، فقد كان يعتمد فى نجاحه على مذاكرته هو فى بيته .

وهو فى ذلك مثل الأغلبية الكاثرة من الطلبة ، ولكنهم مع ذلك يصرون على الذهاب إلى الكلية ولكل من الطلبة سبب خاص به فى ذهابهم إلى الكلية ، فأغلبهم لا يصيب شيئا من الفائدة بالمحاضرات ، بل إن كثيرا منهم يذهب إلى الكلية ولا يدخل إلى المحاضرة ويقول قائلهم :

— إن وجدت الكرسي الذى أقتعده ، فلن أجد الهواء الذى اتنفسه . ولكن الطلبة مع ذلك يحرص أغلبهم على الذهاب إلى الكلية . وأين سيجد كل هؤلاء الأصدقاء ومن ينادمهم وينادونه ، وأين سيجد الفتيات بهذه الأعداد الهائلة .. ولكل من الطلبة فتاة من زميلاته يعجب بها ، وسواء لديه إن كان عنده أمل فى صداقتها أولا أمل له .

وكان فائق من هؤلاء الكثرة الذين يحرصون على الذهاب إلى الكلية ، وكان له فى فتاة بذاتها مأرب ، ولكنه ما كان يدرى كيف يتقرب منها أو يرمى شباكه عليها . فقد كانت صلاته الاجتماعية محدودة ، وكانت المآذب التى يقيمها أبوه لا يأتى إليها من الفتيات من هن فى مثل سنه ، وإنما كن نساء فى سن أمه . فإن صغرنا فبسنوات قليلة لا يتصور أن تكون واحدة منهن على علاقة به .

وفي الكلية أغلب الفتيات يتجمعن بعيدا عن الطلبة ، ولم يكن يتصور أن يقتحم عليهن تجمعهن ويخاطب واحده التي يعجب بها كل الإعجاب . وكل ما استطاع الوصول إليه بعد جهد جهيد أن اسمها إلهام ، وحتى لم يعزف اسم أبيها .

وكان فائق يذهب إلى المكتبة كثيرا بعد انتهاء المحاضرات ليحصل على بعض مراجع ، فقد كان حريصا أن يكون نجاحه بتقدير يشرفه .

دخل إلى المكتبة ووجد فيها إلهام فخفق قلبه .. إنه محقق في يومه هذا ما عجز عن تحقيقه منذ التفت قلبه إليها .. عثر على المرجع الذي جاء من أجله ووضع أمامه وفتحته ولم يستطع أن يقرأ منه شيئا ، فقد كانت عيناه على إلهام أن تخرج وهو مستغرق في القراءة . الكتاب يستطيع أن يعود إليه في أي وقت ، ولكن هذه الفرصة هيات أن يجعلها تفلت من يديه . قامت إلهام لتعيد ما معها من مراجع فقام من فوره وأعاد المرجع لم يقرأ منه حرفا . وخرج مع إلهام من المكتبة .. كانت ساحة الجامعة تكاد تكون خالية .. ومشت إلهام فتبعها لا ينطق بكلمة حتى إذا بلغا خارج الجامعة وقفت إلهام تبحث عن سيارة أجرة ، وحينئذ تجرأ وأقدم ..

— ٩٢ —

- أين سيارتك ؟
- فى الإصلاح .
- هل إذا عرضت أن أوصلك أكون قد تجاوزت مكانى ؟ ..
- مطلقا .. أنت زميلى ، وأى تجاوز أن يعين زميل زميلة له ؟
- تفضلى .
- وفى السيارة وجد نفسه يقول دون ريث تفكير :
- أنت لا تعرفين كم مررت من زمن أنتظر هذه الصدفة ..
- بل أعرف .
- تعرفين ؟
- منذ أول يوم نظرت فيه إلّى ..
- كيف .. هذا غير معقول .
- بل هذا هو المعقول ، فالفتاة منا تحس بالنظرات حتى وإن لم ترها .
- إذن ؟
- إنك فى كل يوم تتحرى أن تقف على مقربة منى ومن زميلاتي ونظرك موجه إلّى .
- لم أجرؤ أن أتقدم إليكن .

— ٩٣ —

- وأنا لم أعرف كيف أشجعك .
- بنظرة بابتسامة ، أو بشبه ابتسامة .
- أترضى لى أن أكون البادئة ؟
- مجرد إشارة عابرة .
- لا يعقل أن تكون الإشارة الأولى منى أنا .
- أعرف أن اسمك إلهام ، عرفته وأنا أسمع زميلاتك ينادينك .
- ولم تحاول أن تعرف بقية اسمى ؟
- خشيت على سمعتك .
- إلهام وجدى .
- اسم الوالد ؟
- طبعا .
- ظننت أنه قد يكون اسم الأسرة .
- اسم الأسرة زين الدين .
- وأنا فائق .
- فائق هارون بركات .
- لم أفرح بسماع اسمى مثل هذه اللحظة .
- لا يا شيخ .

— ٩٤ —

— تعرفينه بالكامل .

— هذا أمر ليس صعبا .

— كيف عرفته ؟

— من زملائك .

— أنا لا أعرف زميلات .

— لماذا ؟

— لا أدري ، ربما كنت خجولا أكثر مما ينبغي .

— شيء غريب في زماننا هذا .

— زواربيتنا كثيرون ، ولكنهم يجيئون لنا في أعمال ولا معنى

لوجودي معهم . وفتيات أسرنا قليلات جدا ، فأنا لا أعرف إلا

ابنة خالتي هناء ، وليس لي عم ولا بنات عم فدائرتي الاجتماعية

ضيقة جدا . وأنا طالب لا بأس بي أنال تقديرا دائما في كل عام .

— أما هذا فأعرفه .

— أنت ما أخبار دراستك ؟

— طالبة من درجة مقبول ، ولكنني أنجح وراضية بقسمتي كل

الرضى والحمد لله .

— نعمة .

— ٩٥ —

— أراك تسير ولا تسألنى عن عنوانى ، ومع ذلك فأنت فى الطريق الصحيح .

— إن كنت خجلت أن اتعرف بك ، فإننى لم أجد أن أتبعك بسيارتى كلما خرجنا معا من الجامعة .

— معقول !

— هذه أول مرة أراك فيها بالمكتبة .

— لأنها أول مرة أذهب فيها إلى المكتبة .

— ماذا كنت تريد منى ؟

— هذا شأنى .

— هل اسم الكتاب ؟

— ليس سرا . وإنما أنا ذهبت حتى يخف الزحام وأجد سيارة أجرة .

— فقط ؟

— ولأقرأ بعض مواد فى القانون التجارى لم أفهمها من شرح الدكتور طلبه .

— وفهمتها ؟

— أوتريد أن تبحث عن حجة لتذاكر معى ؟

— ٩٦ —

— اسمعى .. أرجوك أن ترفقى بى فأنا خجول كما ذكرت لك ، وأنا فى نفس الوقت معجب بك إعجابا شديدا .
— أشكرك .

— بل أنا الذى أشكرك .

— أتعرف لماذا أشكرك ؟

— ربما لإعجابى بك .

— لأنك اخترت الكلمة المناسبة ، ولم تقل الكلمة التى يستسهل كل فتى أن يقولها لفتاة .

— أنا صادق دائما ، أو على الأقل أحاول أن أكون صادقا .

— لقد وصلنا ، ومن حقك على أن أقول لك إننى أيضا معجبة بك .

— بماذا ؟

— كنت أقدر فى نفسى محاولتك التقرب منى وتعفك عن فرض نفسك على .. أما الآن وبعد حديثى معك .. فأنا أيضا أحمل لك نفس الإعجاب الذى تحمله لى .

* * *

١٠

قال سعدون :

— يا هارون أنا نويت إن شاء الله أن أبيع أرضى وأرض زوجتى .. وصمت هارون قليلا . إنه سيخسر لا شك ، ولكن المبالغ التى تعود عليه من الزراعة جميعا أصبحت ضئيلة هينة لا قيمة لها بجانب ثروته التى أصبحت شائعة . وإن كان قد جمعها بكل الوسائل التى لا تنتسب إلى الشموخ . وبيع سعدون للأرض أمر طبيعى فقد علت به السن ، فمن الطبيعى أن يضمن انتقال الثروة إلى بنتيه فهو لم يرزق الولد .

— ابن عطا الله الذى اشترى أرض حماتك من أبيها ، أنت

تعرفه ؟

— نعم نصيف ، إنه ولد طيب .

— جدا ، وإلا لانتهب الأرض التى اشتراها أبوه شراء صوريا من عثمان بك الله يرحمه ، فثمن الأرض اليوم تضاعف عشرات

(بريق فى السحاب)

— ٩٨ —

الأضعاف .

— طبعا ، وما شأن الحاج وافي ؟

— كبر في السن ، وأخشى أن يختاره الله وهو طبعا ما زال على

وفائه .

— والأربعة الذين اشتروا الأرض من والدك ؟

— كلهم على قيد الحياة ووافقوا على البيع .

— الحمد لله ، وهل جاءك في الأرض ثمن ؟

— نعم ثمن لا بأس به . طبعا أنت لا تفكر في الشراء ؟

— مطلقا ، والواقع أن الزراعة كلها لم تصبح موردا هاما من

مواردى المالية .

— أعلم هذا يا هارون ، ويا ليتك بقيت في الزراعة .

— لماذا ؟

— أنت تعمل في كل شيء ، في المقاولات ، في التصدير

والاستيراد ، في التجارة الداخلية والخارجية .. لقد أصبح المال

بالنسبة إليك غاية لا وسيلة .

— وهل في هذا عيب ؟

— العيب ليس في العمل وإنما في طريقة العمل . والمال عظيم

— ٩٩ —

طالما بقى وسيلة ، و كارثة حين يصبح غاية .. فالأرقام لا تنتهى ،
والمنهوم للمال يرتكب كل شئ ليرضى جشعه ..

— ماذا تعنى ؟

— أعنى معاملتك مع الآخرين . أنت لا تراعى الله ، وما
دمت لا تراعى الله فأنت لا تفكر بإنسانية فى معاملتك ، لا يهملك
أن تخرب بيوت الناس وتمحقهم محقا لتنال أنت بضعة نقود .

— هذه هى قوانين السوق .

— ألا تفكر مطلقا فى قوانين الله .

— والله إن جمعت للحق ، إن هذه الفكرة لا تخطر على بالى
مطلقا .

— ومع ذلك حلفت بالله فى أول جملتك .

— تعود سخيـف ..

— أليس هو خالقنا ؟

— أشك فى هذا .

— فمن الخالق ؟

— لا أدرى ، ربما كانت الطبيعة .

— كلام فارغ . الطبيعة لا عقل لها ولا إرادة .

— ما تعنى ؟

— أعنى أن المعادلات الكيماوية التى تنتسب للطبيعة ليس لها إرادة ، فإذا وضعت أكسوجين مع هيدروجين لا بد أن ينتج ماء . وإذا أوصلت سلكا كهربائيا سالبا بآخر موجب لا بد أن تنتج قوة كهربية .

— وماذا فى هذا ؟

— إن الله صنعها هكذا ، ولكنه أبقى لنفسه الإرادة فى أشياء لا تستطيع الطبيعة أن تقترب منها .

— مثل ماذا ؟..

— مثل إنجاب البنين . كان المفروض أنه ما دام رجل سليم قد تزوج من فتاة سليمة فلا بد أن ينجبا أطفالا . ولكن هذا لا يحدث ، ولا يأتى الأطفال إلا بقوة إلهية عليا .. ومثل نزول المطر ، فقد كان المفروض أنه ما دام البخار قد تصاعد إلى السماء فلا بد أن ينزل المطر . ولكن هذا لا يحدث ، فإن الله ينزل المطر حينما يشاء . والأمثلة على وجود إرادة عظمى وقوة إلهية لا يحيط بها البشر .

— لقد تقدم العلم كثيرا .

— ١٠١ —

— ولكنه عجز عن أن يجعل العقيم منجبا ، وعجز عن دفع
السيول الذى لا يبقى ولا يذر أو إنزال المطر .. وكل تقدم علمى
كشف عن قوى إلهية كامنة فى الطبيعة يتيح الله للبشر أن يتعرفوا
عليها بإرادته وفى اللحظة التى يريد بها . وما تدرى نفس ماذا
تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت .
— أنا لا أفكر فى هذه الأشياء .

— لقد عجز رئيس أمريكا أكبر دولة فى التاريخ أن يمنع السيول
أن تصيب بيته هو . لقد عجز علم دولته التى وصلت إلى القمر أن
يواجه إرادة الله فى السيول أو الجفاف أو البرد أو الحر أو الميلاد أو
الوفاة ، وتأتى سعادتك تقول الطبيعة هى التى خلقت . يا لها من
خالق عاجز مخلوق بلا عقل ولا تفكير ! إن هذا العالم يستحيل أن
يديره إلا قوة عليا من التفكير والتدبير ، فالذى خلق الضوء خلق
العينين ، والذى خلق الحديث خلق الأذنين . أى طبيعة هزيلة هذه
التي تفكر فيها . كم أنت مسكين يا بنى .
— المهم أننى خلقت .

— وأنت أيضا ستموت . فلو أن الطبيعة هى التى خلقتك
أتراها أيضا هى التى ستميتك ؟ .

— ١٠٢ —

— لا أدري .

— فكر قليلا . هل للموت معادلة كيماوية .. أنت ترى
الطفل يموت والصبي يموت والشاب يموت ، ويبقى الشيخ
العجوز المريض ، وترى كما قال شوقي :

وقد ذهب الممتلى صحة وصح السقيم فلم يذهب
— إن كل هذا الذى تقول لا يشغلنى فى كثير أو قليل .

— لأنك بعيد عن الله كل البعد . دينك وإلهك المال وحده .
ولا شريك له حتى حبك لأبيك وأمك لا وجود له ، بل حبك
لأبنائك الذى يجب أن يكون غريزيا بالسليقة ضئيل عندك بجانب
حبك للمال .

— العالم كله مهموم بالمال وبالتقدم العلمى .

— إن العالم كله لم يستطع أن يصل إلى سر الروح ، وقد أنفق
الاتحاد السوفيتى المليارات من الأموال ليصلوا إلى سر الروح حتى
يدللوا به على صحة مذهبهم الإلحادى ، وما زال سر الروح
مستغلما على العالم أجمع . ألا إنها من أمر ربي .

— ١٠٣ —

— أنت غاضب علىّ .

— أنا حزين لأجلك ، وحزين لأجل أبنائك الذين لا يسمعون

اسم الله في بيوتهم إلا في الصلاة التي تقيمها أمهم .. أنجاهم الله من

كفرك ..

* * *

١١

دق جرس التليفون فى بيت هارون ، ورفعت حميدة
السماعة :

— ماما .

— شهاب ؟

— لا ، أنا الباشمهندس شهاب .

— صحيح ؟

— وفائق أيضا أصبح الباشمهندس فائق .

وفى طفر من الفرحة غامرة قالت حميدة :

— صحيح ؟ الحمد لله يا ابنى . ألا تأتى لأقبلك ؟ وأين

أخوك ؟

— أنا ساقضى اليوم مع إخوانى ، وسأتأخر فى المساء . أما

فائق فقد طلب منى أن أخبرك أنه سيتغدى خارج البيت ولن
يتأخر بعد ذلك .

— ١٠٥ —

— ألم يكن من المعقول أن تأتى أنت وأخوك لنفرح بكما أنا وأبوك .

— أبى مشغول ، المهم أن تعرفى أنت ، وقد كلمتك بعد أن عرفت النتيجة مباشرة لأنى أنا وفائق نعرف أن الأمر يهلك ..

— يهمنى ؟ إنه أملى الذى أعيش له وبه .

— الحمد لله . قولى أنت لأبى ، وما أظن الأمر يهمله كثيرا .

— أهذا كلام ؟

— المهم لا تنشغلى إذا تأخرت قليلا فى المساء ..

— ما تشوفه يا ابنى ، الأمر لله .

— مع السلامة .

— مع السلامة .

لم يبد هارون الفرع الذى ينبغى لأب تخرج ولداه اللذان ليس له غيرهما . وكأن الأمر كان مفروضا لا شك فيه ، وألم بقلب حميدة بعض الألم من استقبال هارون لخبر هو فى عرف الأسرات من أهم الأخبار التى تسعد لها الأسر جميعا .

تناول هارون غداءه فى سرعة ولم ينم نومة القيلولة ، وخرج

وهو ينبئ زوجته أنه سيتأخر في المساء . ولم تسأله لماذا فهكذا
تعودت .

وأمسكت التليفون لتخبر أختها بنجاح ابنها وبشرتها وجيدة
بأن هناء أيضا حصلت على ليسانس الحقوق ، وأن أيمن نجح
وأصبح في السنة النهائية من نفس الكلية . وكان الدكتور أجد في
البيت ، وكان سعيدا غاية السعادة بنجاح ابنته وابنه . وهنا حميدة
بنجاح ولديها ، واستردت حميدة فرحتها التي كان استقبال هارون
قد خفف منها .

وراحت حميدة تكلم أبويها وصديقاتها جميعا . وفجأة
تذكرت أنها لم تكلم الحاج حامد فأدارت القرص وكلمته في
البلدة ، فكانت سعادته الواضحة من صوته أعظم ألف مرة مما رآته
من عدم اهتمام هارون بالخبر . وكلمتها حمايتها الحاجة توحيدة وهى
تقول :

— لو كنت أعرف كيف أزغرد لزغردت . ولكن انتظرى !
يانبوية ، يا أم الهنا ، يا سعديه ، زغردن يا بنات واملأن الدنيا
زغاريد .

وسمعت حميدة زغاريد الخادومات في التليفون فأحست قلبها

يزغرد معهن وهكذا ملأت السعادة جوانح جميلة فقد عبرت هذه الزغاريد عن كثير من خلجات الفرح التي يدق بها فؤادها .

ولم تمض ساعات حتى جاءت أختها وجيدة وابنتها هناء ومعهما صناديق من الحلوى ، وأقبلت الكثيرات من صديقاتها يحملن أيضا ما يجاملن به حميدة صديقتهن الطيبة الحبيبة إليهن بخلقها السلس وصداقتها الحنون الخالصة بلا شوائب .. فقد كن يحملن لها الود الصادق وإن كانت منهن من تكنّ لها بعض الحسد على الغنى الفاحش الذي أصابه زوجها ، إلا أن أولئك كن يجهدن غاية الجهد أن يخفين حسدهن حتى كن يبدن أكثر حبا لها من المخلصات اللواتي لا يحملن لها إلا الحب الخالص الكريم .

ولم يسكت التليفون عن الرنين ممن لا يستطيعن المجئ يقدمن التهنئته ويسعدن بالزيارة في الغد .

وطال بالسيدات الحديث حتى أوشك موعد العشاء أن يحين ، فبدأن في الانصراف ولم يبق إلا وجيدة وابنتها هناء فقد بقيتا قليلا ، ثم قالت وجيدة :

— نقوم أنا وهناء فإننا الليلة سنحتفل بالنجاح ، وقد أعددت

وليمة إذا كان هارون سيتأخر فلماذا لا تأتى معنا يا حميدة ؟

— ١٠٨ —

— هارون فعلا سيتأخر وكذلك شهاب ، ولكنى أعتقد أن
فائق في طريقه إلينا وسأكرمه بعشاء فاخر .

وقبل أن تكمل جملتها دخل فائق وسعادة الدنيا كلها في وجهه
وعينه ، واستقبلته حالته وهناء بالتهليل وحين استقر بهم المجلس
قالت هناء :

— هذه الفرحة الكبرى التى فى وجهك وعينيك فرحة النجاح
وحده ؟

— أليس التخرج جديرا بهذا .. ألم تفرحى أنت بالتخرج ؟
— أنا كنت واثقة ، وكل ما كان يهمنى هو درجة التخرج .
— جيد .

— خست ، بل جيد جدا .

— ومن سمعك وشرفك أنا أيضا ، بل وشهاب أيضا . ما
درجة أيمن ؟

— جيد .

— نعمة .

— ولكنى مازلت مصرة أن فى عينيك مع فرح النجاح فرحا
آخر .

— ١٠٩ —

- ما سر إصرارك هذا ؟
- أنا وأنت كنا ننال تقديرا في جميع سنوات الدراسة ،
فنجاحنا بدرجة جيد جدا أمر متوقع ، وهذه السعادة التي تتناثر
حولك وراءها سر آخر .
- ولماذا تحاولين أن تكشفى أسرارى ؟
- فضول المرأة .
- ألا يرده اقتران الليسانس بدرجة جيد جدا ؟
- تظل المرأة هي المرأة .
- ولن أشفى فضولك هذا .
- ما تلبث الأسرار أن تنكشف وتذيع وتصبح على كل
لسان ، والذي لا يشتري يتفرج .
- انتظري حتى تشتري وتتفرجى .
- ألا تنال ابنة خالتك حق سبق ؟
- كأنك نلت الليسانس في الصحافة .
- والمحاماة أيضا تبحث عن الحقيقة .
- لقد بدأت الممارسة مبكرة جدا .
- وقاطعتها وجيدة :

— ١١٠ —

— كعادتكما لا ينتهى لكما نقاش. قومي يا بنت .

وقامت هناء :

— أيقال للجديد جدا يا بنت ؟

— وإن أصبحت رئيسة النقض أنت عندى بنت .. هيا حتى

لا نتأخر عن أهلك وأخيك .

وقامتا .

وما لبث أن أعد العشاء وجلست إليه حميدة وفائق . لكنها

لاحظت أنه غير مقبل على الطعام إقباله الذى تعودته منه ففاجأته :

— فائق هل تعشيت ؟

وأرتج على فائق لحظات ، ثم ما لبث أن تمالك نفسه وهو

يقول :

— أنا .. أبدا .. أبدا والله .

— بل تعشيت .

— أبدا .

— المهم قم بنا .

— ألا تكملين عشاءك ؟

— وحدى .. أنا شبع .

— ١١١ —

— لم تأكلى .

— ربما أكون أنا الأخرى قد تعشيت .

وضحكت وضحك وقاما . وذهبا إلى غرفة المعيشة وجلسا أمام التلفزيون . وكان يعرض به فيلم عربى قديم ولكنهما كانا مستمتعين به ، وقبل أن ينتهى الفيلم دق جرس التلفون . ونظر كلاهما إلى الآخر ، وكان فائق أسبق إلى التلفون .

— بيت هارون بك بركات ؟

— نعم من يريدہ ؟

— هنا قسم قصر النيل . حضرتك هارون بك ؟

— لا أنا ابنه .

— ألك أخ اسمه شهاب ؟

— نعم ماله ؟

— عندنا وليس معه بطاقة ، نرجو أن يأتى أحد من عندكم .

— هل هناك شىء ؟

— من يأتى سيعرف .

— شكرا !

ووضع فائق السماعة وهو فى حالة ذهول تام وقد امتقع وجهه

— ١١٢ —

وجف فمه حتى لا يستطيع أن ينطق ، وذعرت الأم وسارعت إليه ..

— ماذا .. ماذا يا فائق .. ماذا حدث ؟

وجمع فائق الكلمات ونطقها بصعوبة :

— شهاب في القسم .

ودقت صدرها وارتمت إلى أقرب كرسي منها .

— لماذا ، ماذا فعل ؟

— لا أدري .. لا بد أن أذهب إليه .

— تذهب إليه وحدك ؟

— أئى غير موجود ، ماذا أصنع ؟

— انتظر .

وطلبت الدكتور أمجد وأجابها ، وروت له ما حدث .

— فائق عندك ؟

— نعم .

— يأتى إلى الآن وسأذهب معه .

وفى القسم قدم الدكتور أمجد نفسه كما قدم فائق ، وسأل

وعرف كل شيء .. لقد هاجم بوليس الآداب بيتا وكان به

— ١١٣ —

شهاب . وقال أمجد :

— لا أظنكم تحتجزونه .

— لو كان معه بطاقة ما استدعيناكم .

— معى بطاقة .

— إذن سنفرج عنه فى الحال .

وخرج ثلاثتهم وركبوا السيارة صامتين لم ينطق أحد بكلمة ،
وحين بلغوا منزل الدكتور أمجد نزل دون تحية . وسار أمجد فى
طريقه ولأول مرة تكلم شهاب :

— إلى أين ؟

— إلى البيت .

— أمر لآخذ سيارتى .

ودله على الطريق . ونزل شهاب وقال لفائق :

— أنا لن أذهب إلى البيت .

— أنا تركت ماما بن الحياة والموت .

— طمنها أنت . أنا لن أذهب إلى البيت .

— إلى أين تذهب الآن ؟

— اطمئن .. لا تخف .

(برىق فى السحاب)

— ١١٤ —

وتركه دون أن يكمل الحديث ، وركب سيارته وسار بها
وفائق مذهول في مكانه .

لا أمل لي إلا هو . أنا الآن أريد مكانا أختفى فيه عن الوجوه
اللائمة . وأريد الغفران وأريد الحب . قد أجد هذا من أُمى
وحدها ، ولكن سأجد كل ما أكره في وجوه الآخرين .

١٢

كان الحاج حامد نائما هو وزوجته الحاجة توحيدة . وفي
سنيهما هذه لا يكون النوم عميقا ، فلم يكن عجيبا أن يسمعا طرقا
خافتا واضحا الاستحياء على الباب الخارجى للمنزل .

وقام إلى الباب الحاج حامد وهو يستعيز بالله من الشيطان
الرجيم ، ويدعوه أن يكون الطارق يحمل خيرا أولا يحمل سوءا
على الأقل .

وفتح الباب وما إن رأى شهاب حتى صاح به فى وهز
وخوف ..

— شهاب ، أهلا يا بنى ! خيرا إن شاء الله .

وفى لعنمة قال شهاب :

— خيرا إن شاء الله يا جدى .

— تعال .. ادخل .. ماذا بك ؟ اجلس .

— لا تخف يا جدى كلنا بخير .

— ١١٦ —

— انتظر حتى أطمئن ستك .

— لا تجعلها تقوم من فراشها ، أريدك وحدك .

— حاضر يا ابني .

وعاد الحاج حامد إلى حفيده .. وروى شهاب على جده كل شيء في صراحة وشجاعة ، وأطرق الحاج حامد قليلا ثم رفع رأسه إلى شهاب .

— غفور رحيم يا بني .

— لا أحب أن أرى أحدا الآن إلا أنت ، فعندك أجد الحب

الذي لا أجده من أحد إلا عند أُمي .

— غفور رحيم يا بني .

— أريد أن أبقى عندك بضعة أيام .

— أهلا بك لبضعة أيام وبضعة اشهر وبضع سنوات ، هذا

بيتك يا ابني .

— أعرف ذلك ، لا تقل شيئا لستي .

— سأقول إنك مختلف مع أبيك ، وربنا يسامحني على الكذب .

— هكذا أحسن .

— هل تعرف أمك أين أنت ؟

— ١١٧ —

- لا أحد يعرف .
- هذا غير معقول .
- لا أريد أن أرى أمى ، فستكون حزينة حتى وإن غفرت لي .
- يا ابنى أنت لا تعرف قلب الأم ، إنها الآن فى حالة جنون وهى لا تستحق منك هذا .
- إذن أخبرها .

* * *

- حين وصل فائق إلى البيت لقفته أمه على الباب .
- خيرا يا فائق ، أين شهاب ؟
- لا شيء ، شهاب بخير ولم يفعل شيئا ..
- فلماذا كان فى القسم .
- مسألة بسيطة .
- ماذا ؟
- وصمت فائق حائرا ، إن قال حادثة سيارة لازداد دعر أمه .. جلس وأطرق .
- أنطق .

— ١١٨ —

— مجرد عراك بينه وبين أحد الضباط .

— هكذا من غير مناسبة ؟

وجاء هارون من غرفة النوم على صوت ابنه وأمه .

— قل الحقيقة .

— ماذا أقول يا أبى ؟

— الحقيقة .

وقالها بعد أن فكر أنه إن لم يقل هو الحقيقة فسيقولها الدكتور

أمجد .. قالها وهو خزيان وكأنه هو الذى ضبط ..

وكان رد الفعل عند أمه صمتا متألما ودمعات غزيرة ، أما

هارون فكان شأنه عجبا . لقد قعد بعد أن كان واقفا وراح

يضحك فى قهقهة .. ثم قال وهو يضحك ..

— واين هو الآن ؟ ألا تعرف ؟

— رفض أن يعود معى إلى البيت ، ولا أدرى أين ذهب .

وقالت حميدة :

— هل هذا معقول ، ألا يأتى لنطمئن عليه على الأقل .

وقال فائق :

— قال لى طمئن أمى ، ورفض أن يقول لى أين سيذهب .

— ١١٩ —

وقال هارون ضاحكا :

— وأين تظنانه سيذهب ؟ .. هيا لننام .

وصرخت حميدة وهي تدق صدرها :

— أنا .. أنا .. وأنا لا أعرف أين ابني وما حالته ؟

شهاب يختشى من ظله .. ربنا أعلم بحاله الآن .

وضحك هارون وهو يقول :

— لقد أثبت أنه لا يختشى ولا يحزنون .. قومي نامي فقد

اطمأننا عليه .

— أبدا لا يمكن أنام .

— إذن أنا أنا ، وأنت يا فائق ألا تنام ؟

— أنا سأبقى مع ماما .

— أنت حر .

وعاد هارون إلى غرفة نومه .

* * *

دق جرس التليفون في بيت هارون ، وانتفضت إليه حميدة

واختطففت السماعة .

— أهلا يا حاج .. خيرا ؟

— ١٢٠ —

وجاءها صوت الحاج حامد :
— اطمئنى .. شهاب عندنا .
— الله يطيل عمرك يا حاج ؕ الله يخليك .
ووضعت السماعة وقال فائق :
— الحمد لله .
— الآن ننام .
— تصبحين على خير .
— لقد أصبحنا فعلا أو نكاد ..
— سأذهب إليه .
— طبعاً .

* * *

لم يكن هارون مرحباً بالذهاب إلى بيت أبيه ، ولكن حميدة في
هذه المرة قالت له في حزم :
— إن لم تذهب معي فسأعود من البلد إلى بيت أبى .
ولأول مرة يسمع هارون هذا التهديد ، فلم يجد مناصاً من
الذهاب .

* * *

وفي السيارة اتفق ثلاثتهم ألا يفاتحوا شهاب في الموضوع

— ١٢١ —

مطلقا .. وحين وصلوا رحب الحاج حامد ترحابا شديدا بحميدة
وبفائق ، وسلم سلاما فاترا على هارون أما الحاجة توحيدة فقد
رحبت بالجميع .. وقال شهاب :

— كيف استطعت الهجى يا أبى ؟

— أملك يا سيدى .

— لقد توقعت أن تقول هذا .

وقال هارون :

— المسألة لا تستحق هذه الهوسى .

وقال الحاج حامد :

— هل من الهوس أن تزور أباك وأملك ؟ .. يا خسارة !

— مشاغلى يا أبى لا تتصورها .

— أعرف أنك والحمد لله قد أصابك السعار :

وقالت الأم :

— أتكتفى بأن ترسل إلينا مالا فى كل شهر ولا تأتى ؟

ورأى الحاج حامد الدهشة على وجه هارون . لم يستطع

هارون أن يخفيها بل قال فى لعنة ..

— مالا .

— ١٢٢ —

وقالت الأم في سداجة :

— نعم ، الراتب الذى ترسله كل شهر . أنظن أن الأم والأب
يكفيهما المال ..

— نعم .

— ألم تسمع ؟

— آه . إن مكتبى يرسله كل شهر ..

وصمت وقد حسب أنه قد خرج من المأزق ، ولكن عقله
كان حائرا حيرة كبرى .. إنه واثق أنه لا يرسل شيئا ، وواثق أن
مكتبه لا يرسل شيئا ، فما هذا المال الذى تتكلم عنه أمه ؟
وتغير الموضوع وتناول الغداء ، وحين أزمع هارون العودة إلى
القاهرة نظر إلى شهاب ..

— أتأتى معنا ؟

وأجاب شهاب فى حسم :

— سأبقى بضعة أيام مع جدى .

— على كيفك .

١٣

فى الصباحت ترك الحاج حامد حميدة نائمة وخرج إلى حجرة
الاستقبال الملحقة ببيته ، وأرسل رسولا إلى مختار عمر يطلب منه
أن يجيئ إليه بأسرع ما يستطيع . وما أن انتهى مختار عمر من أعماله
العاجلة حتى سارع إلى الحاج حامد . وتأكد الحاج حامد أنه
منفرد بمختار وسأله :

— مختار ، أنت تعرف أننى أتلقى فى كل شهر مبلغا يصل إليوم
إلى ستائة جنيه .

وأدرك مختار ما يريد له الحاج حامد فأطرق فى حيرة واشتد به
وجيب قلبه وامتقع وجهه ، فأوشكت ظنون حامد أن تصبح
مؤكددة . وبعد لحظة مريرة طويلة قال مختار !

— نعم .

— كنت حتى أمس واثقا أن هارون هو الذى يرسل لى هذا
المبلغ .

— ١٢٤ —

— وما الذى جعلك تشك فى ثقتك هذه ؟

— هارون نفسه ، لقد زارنى بالأمس بعد سنوات طويلة من
الانقطاع عن زيارتى .

— وهل نفى أن يكون هو مرسل المرتب الشهرى ؟

— لم ينف ، وإنما دهش ووضحت الدهشة على وجهه ، ثم ما
لبث أن استرد دهشته عن وجهه وزعم أن مكتبه يرسل المبلغ فى
كل شهر ..

— ولماذا لم تصدقه ؟

— صدقته أمه فهى التى ذكرت أمر هذا المبلغ ، أما أنا فلم
أصدق ، وأريد أن أعرف الحقيقة منك ..
وأطرق مختار طويلاً ثم انفجر :

— لقد ضاق صدرى بهذا السر ، وإننى أشعر أن فى كتمان
ظلمنا لصاحب الفضل وتكريماً لمن لا فضل له .
— إذن ؟

— الحقيقة أن هارون لا يرسل شيئاً .

وراح مختار يروى على الحاج حامد القصة منذ كلفه بيع
الكردان حتى يومهم هذا ، وكان كلما أوغل فى الرواية ازداد

— ١٢٥ —

حزن الحاج حامد وراحت نفسه تتمزق كل ممزق . أكان يعيش
هذه السنوات على الصدقة وابنه على هذا الغنى الفاحش ؟ أرضى
له ابنه هذا ؟ .. فما قيمة هذا الابن إلا أن يكون حزنا لوالديه
وعبئا على الحياة جميعها . وجمع الكلمات المفككة على لسانه
ليسأل مختار :

— هل يعرف هارون شيئا مما رويته لى ؟

وقال مختار فى لعنة :

— لا أظن .

— لا فرق ، ربما كان علمه أعظم سفالة من عدم علمه .

ولكن الجحود والانحطاط وضياع الكرامة يحيط به من كل
جانب .

— كان لا بد أن أخبرك .

— لقد أسأت إالى بكتمانك .

— أنا لم أقصد .. وإنما خشيت أن أراك فى الحالة التى أنت عليها

الآن .

— كان الموت جوعا خيرا مما ألاقه الآن .

— نسييك وقام بواجبه .

— ليس واجبه أن يطعمنى ويكسونى ولى ابن وهبت له كل
شئ ، وأسلمت له أمرى وأمر أمه .
— لا أجد ما أقوله .

وصمت الحاج حامد واحترم مختار صمته .. النار والألم
والضياح يطبقون على فؤاده حتى لقد كان يلقف أنفاسه من الهواء
اجتذاها .. وطال الصمت .. ماذا يصنع ؟ كيف يرد لسعدون
هذا الدين ؟ .. وهل يقبل سعدون أن يتقاضاه ؟ أيكون سعدون
أشفق عليه من ولده عصارة حياته ودمه وقلبه وماضيهِ وحياته وما
بقى له من أيام على سطح الحياة ؟ كيف تستطيع الحياة أن تصنع
شخصاً فى عظمة سعدون وتصنع فى نفس الوقت شخصاً فى
انحطاط هارون ؟ .. كيف تسع الدنيا قلباً فيه هذه الرقة التى ينعم
بها سعدون وتسع معه قلباً فيه هذا الجحود وهذه الصلابة الخسيصة
الدينئة المتوحشة فى كيان هارون ؟ ماذا أنا صانع .. كيف أعلن
غضبى وشكرى ، وألمى وامتنانى ؟ ماذا أنا صانع ؟ .. لا أستطيع
أن أفكر الآن .

— مختار .

— نعم .

— ١٢٧ —

— أرجو أن تمر على غدا بعد أن تصلى الفجر .
— أمرك .

وقام مختار عن مجلس الحاج حامد وخلت الحجرة به موجودا بلا وجود ، يكاد فؤاده أن يتوقف عن النبض .. صغرت الحياة أمام عينيه ولكن دعاءه ألا يموت حتى ينزل ثورته على ابنه ، ويتقدم بشكره إلى أعتاب سعدون .. وظل هذا الدعاء يتردد في كيانه وتنتفض به جوانحه وهو يقوم من مجلسه ويدلف إلى غرفته ، وتلقاه زوجه فيها ما هو فيه من شحوب وغيظ ينتفض به وجهه وقد ورمت أعراق دمائه حتى لتوشك الدماء أن تنبجس منها .

— مالك ؟

— اتركيني ..

— أتركك .. كيف ؟

قال في حسم :

— توحيدة ، اتركيني الآن .. وفورا .

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. أمرك ..

— ولا أحد يدخل عندي .

— ماذا أقول لشهاب ؟

— قولى له ما شئت ، ولكننى لا أريد أن أرى أحدا ..
 أسمعت ؟
 — أمرك .

وخرجت وأغلق الباب بالمفتاح وألقى بنفسه على السرير ذاهلا
 تملأ المهانة نفسه يزحمها الغيظ والأسى ، وعيناه شاخصتان إلى
 الفراغ .

ومر به اليوم جميعا وهو على حاله هذا ، حتى لقد أبى أن يتناول
 طعاما فى يومه كله . والحاجة توحيدة وحفيدها حائران معذبان
 بالقلق لا يدریان مما يعانيه الشيخ من أهوال .
 وكان كلما خرج من الغرفة ليتوضأ ويصلى يحاول شهاب أن
 يسأله عما به فيزجره فى عنف لم يعهده شهاب منه قبل ذلك
 مطلقا .. ويئست الحاجة توحيدة أن تعرف منه شيئا عما به .

وانقضى اليوم وشهاب يفكر أن يسافر فقد كان يظن أن جده
 غاضب عليه ، ولكن الحاجة توحيدة تنفى عنه هذه الفكرة بكل
 ثقة وترجوه ألا يترك جده وهو فى حاله هذا فيجد فى كلامها
 منطقا .. فربما كان جدى مريضا ولا يجوز أن يتركه خاصة وأن
 معه سيارة لعلها تكون ذات فائدة فيمكث فى غير رغبة فى
 المكوث . وهو أيضا لا يحس برغبة فى الرحيل ، ولكنه لا يدرى

ماذا يصنع بيومه هذا الطويل . خرج إلى القرية وراح يتمشى بلا هدف بين الحقول . ولم يعد أن يجد بعض من يعرفهم ويعرفونه من أبناء القرية يحادثهم ويحادثونه ، ثم ما يلبث كل منهم أن ينصرف إلى شأنه وينفرد به الطريق مرة أخرى وتهز نفسه الوسوس بين شعوره بالخلجل مما صنع وبين ما يعاينه جده .

والحاجة توحيدة والهة حائرة تدور في البيت بلا عمل ، وتصلي فلا تفلت سنة ولا نافلة إلا أقامت صلاتها . ولكن الساعات بطيئات ثقيلة .. وحين عاد شهاب إلى البيت لم يستطع أن يتصل بينهما حديث ..

وتمر اليوم ويأتي الليل دون أن يذوق الحاج حامد لقمة في يومه هذا .. هل أستطيع أن أطعم من مال الصدقة وأنا الذي عشت عمرى كريما على نفسي وعلى الناس ..

وكيف أستطيع أن أسبغ الطعام ، وكيف يقبله لساني أو جسمي !. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك .

وتطرق الحاجة توحيدة غرفته تريد أن تنام ..

— نامى في غرفة أخرى ..

وتدعن المسكينة هذا الإذعان الذي يعرفه ذلك الجليل ، والذي لا يتصور أن تكون الأمور إلا هكذا .. أمر من الرجل وطاعة من

(بريق في السحاب)

الزوجة وبغير معرفة للأسباب ..

وفى فجر الليل فاه المظلم يخطط به الحاج حامد ، ويظل يتقلب على فراشه . الموت أهون . ولكن لا .. يا رب العالمين لقد أطعتك عمرى كله ، اترك لى من الحياة فرصة حتى أنسخط وأعلن سخطى على ابنى ، وحتى أشكر وأعلن شكرى لمن أكرمنى .

وفى تباشير الفجر قام الحاج حامد فتوضأ وأقام الصلاة ، وأحس وهو يقرأ الفاتحة أنه اقترب إلى السماء غاية القرب ، وأن أنساما من نسيمات الملائكة تراوحه ، وأن وجيب قلبه أصبح تخشعا وحنينا ورحمة .. وراح الهدوء يسرى فى أوصاله شيئا فشيئا . وما أن ختم الصلاة حتى أحس نفسه خفيفا كملاك ، سعيدا جذلا يملأ الفرح نفسه والشكر لله يشيع فى جوانحه .. لقد ألهمه المولى عز وجل الطريق .. فإذا هو إنسان جديد كأنما لم يخلق إلا فى لحظته تلك . صلى النوافل وقام إلى دولابه وأخرج بضعة أوراق وسرعان ما وجد الورقة التى يبحث عنها ووضعها فى جيبه ، ثم انبعث إلى زوجته يصيح بها فى صوت جذل فرحان .. — توحيدة .

وكانت المسكينة قد فرغت من صلاتها هى الأخرى بعد ليلة لم يعرف النوم إلى جفونها سبيلا .. صاح بها فى صوته الفرحان الملىء

— ١٣١ —

بالبهجة ..

— أين أنت يا حاجة ؟

ودق قؤاد الحاجة فرحا .. اللهم أنك كريم يارب العالمين ..
لقد عاد إلينا الحاج حامد .

— جائية إليك يا حاج الحمد لله على سلامتك ..

— الحمد لله حمدا يرضيه سبحانه .. هل شهاب نائم ؟ .

— نعم يا كبدي ، لقد كان حاله بالأمس شر حال ، وأغلب
الأمر أنه لم ينم إلا مع الفجر ..

— دعيه .. نائما .. وهاتي لنا الفطور . أشعر أنني سأكل ما
في المنزل .

— جاهز يا حاج .

وحين استقبل مختار قال له :

— هل أنت مشغول اليوم ؟

— لا .. تحت أمرك .

— أريد أن نذهب معا إلى الزقاريق .

— وماله ؟ هيا بنا ..

وذهبا إلى الزقاريق ، واستأجر الحاج حامد سيارة أجرة وطلب

— ١٣٢ —

إلى السائق أن يذهب به إلى الشهر العقارى ، ولم يملك مختار نفسه ..

— الشهر العقارى .. ماذا نفعل فى الشهر العقارى ؟

— سبحان الله يا أخى ماذا عليك لو انتظرت ؟ .. هل معك بطاقتك ؟ ..

— معى .

— عظيم .

وفى الشهر العقارى فوجيء مختار بالحاج حامد يوكله توكيلا خاصا لبيع بيته فى المنيرة ، وأن يقوم بكل الإجراءات التى تؤدى إلى بيع هذا البيت .. وقدم للمسجل ورقة ملكيته المسجلة للبيت ..

وفى دهشة قبل مختار التوكيل .. وعاد مع الحاج حامد إلى البلدة فى السيارة التى استأجرها ، وحين استقر بهما المقام قال الحاج حامد :

— أسافر معك إلى القاهرة .. اليوم أو غدا ونذهب إلى السمسار فى المنطقة ثم أترك لك الأمر كله . أنا صحتى لا تساعدنى والبركة فىك ..

— ١٣٣ —

- ماذا تريد أن تصنع .. إن ابنك يقيم في هذا البيت ..
- وهل أحتاج إليك لتذكرني بهذا ؟
- ما تشوفه .. هل تريدني في شيء الآن ؟
- أعد حقيبتك للسفر ..
- حقيتي ؟ هل سنبيت هناك .
- إذا اقتضى الأمر .
- وماله ؟ .. نزور آل البيت على الأقل ..
- شيئا لله .. يا آل بيت النبي ..
- السلام عليكم ..
- وانصرف مختار على وعذ منه أنه سيكون جاهزا للسفر حين
يستدعيه الحاج حامد ..
- وكان شهاب قد صحا من نومه وتناول فطوره .. ومكث
ينتظر جده الذي بشرته جدته أنه أصبح في خير حال ..
- وحين رآه قادما لم يكن محتاجا ليسأله ، فقد كانت السعادة
بادية على وجهه .
- قال شهاب ..
- لقد أخفتنا عليك البارحة خوفا شديدا ..

— ١٣٤ —

— شدة وزالت .

وهومت سحابة من الأسى على وجه الحاج حامد .. شهاب
ابن هارون . أتراه مثله .. هيهات إن أحدا لن يكون جاحدا جحود
هارون .. وطالما شكالى شهاب من عدم اهتمام أبيه به أو بأخيه ..
لا .. الولد لا ذنب له . وانجابت غمامة الحزن وعاد إلى حفيده ..
— قل لى يا شهاب ، ماذا تنوى أن تعمل بعد أن نلت
بكالوريوس الهندسة ؟

وصمت شهاب قليلا ثم قال :

— أنا لم أفكر بعد والله يا جدى . إن كان الأمر لى لبحثت عن
عمل لى بعيد عن شركات أبى ، ولكن هذا سيبدو أمرا غريبا وأنا
لا أحب أن أعلن عدم اهتمام أبى بنا على الناس أجمعين . ما رأيك
أنت يا جدى ؟ ..

— أنا أفكر فى شىء آخر ..

— شىء آخر ؟

— نعم ..

— فم تفكر يا جدى ..

— سأخبرك ..

— ١٣٥ —

— الآن ..

— ألم تفكر فى الزواج .

— والله لم أفكر فيه حتى الآن ..

— ولم لا ؟

وفكر شهاب قليلا ثم قال :

— فعلا ولم لا ؟

— هل تحس قلبك يميل إلى فتاة بعينها ؟ .

— تقصد أنى أحب .

— وما البأس ؟

— كنت أتمنى ، ولكن البيت الذى أعيش فيه ليس فيه مكان

للحب وهذا بفضل أبى الذى صرف قلبه كله إلى المال .. ولا

يتصور أننى وأخى وأمى نحتاج إلى شىء آخر غيره ..

— إذن فأنت لا تحب أحدا .

— لا ..

— ألا تفكر فى فتاة تصلح زوجة لك .

وصمت قليلا ثم قال :

— أعتقد أن هناء ابنة خالتى بنت حلال وتصلح زوجة من

— ١٣٦ —

جميع الوجوه .

— عظيم ! إنها فعلا فتاة عظيمة .

— ولكن هل تظن أن أباهما يقبل زواجها منى بعد الموقف

المشين الذى رآنى فيه ..

— لا تفكر فى هذا ، واعتمد على الله ثم على ..

— أطل الله عمرك ..

— أمهلنى بضعة أسابيع ، وسأزوجك منها إن شاء الله .

— هذا أمر يسير .

— أمامى بعض أعمال أريد أن أنتهى منها ثم أتفرغ لزواجك ..

— أمرك ..

— أنا أريد أن أسافر إلى القاهرة ، وأنت محتاج أن تبقى هنا

بضعة أيام تسترد فيها نفسك .. سأتركك مع جدتك ..

— أنا فعلا أحتاج أن أبقى هنا بضعة أيام أخرى ..

— وهو كذلك ..

لم يكن الوصول إلى السمسار بحى المنيرة أمرا عسيرا ،

فسرعان ما اهتدى إليه الحاج حامد ومختار . وقال الحاج حامد

— ١٣٧ —

للسمسار الحاج صالح الروينى :

— انظر إلى هذا العقد .

— وقرأ الحاج صالح العقد .

— أمرك .

— أنا صاحب هذا البيت .

— هل هو خال من السكان ؟

— يقيم فيه ابنى بلا عقد ولا تنازل منى ولا ورقة تثبت حقه

فيه .

— هل تتعهد بإخلائه ؟

— إذا وجدت أى صعوبة أذللها ..

— كم تريد ثمننا لهذا البيت ؟

— أنا أوجه إليك هذا السؤال ..

— من مليون ونصف مليون إلى مليونين .

— شىء واحد أريده منك ..

— أنا تحت أمرك .

— لا أريد المشتري أن يدخل البيت .

— هذا أمر صعب .

— ١٣٨ —

— أنا حقيقة فلاح ، ولكنى أعرف الحال فى القاهرة الآن ..

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن المشتري لن يشتري البيت للإقامة فيه ، فليس هناك

من يقبل أن يشتري بيتا قديما كهذا البيت بمليونين من الجنيهات
للإقامة فيه ..

— لعلك على حق ..

— المهم هو الموقع والأرض ..

— إذن أعطنى بضعة أيام ..

— أسبوع مثلا ..

أنا رجل كبير فى السن، وقد سجلت هذا التوكيل لصديقى مختار.

وقال مختار :

— أجيء إليك بعد أسبوع ..

— إن شاء الله .

باع الحاج حامد البيت وسجل البيع فى عشرة أيام ، وأرسل

المشتري إنذارا إلى هارون بإخلاء البيت الذى يقيم به بغير سند

قانونى ..

— ١٣٩ —

ووقع الأمر على هارون وقوع الصاعقة ، ولم يكن تركه للبيت
هو السبب في حسرته وألمه وإنما إدراكه أن أباه غاضب عليه هذا
الغضب الماحق .. وأحس كأن يدا من حديد تعتصر فؤاده ..
ولكن قليلا ما اعتصرته .

وفي بضعة أيام كان قد استأجر بيتا آخر كبيرا مفروشا يقيم فيه
حتى يدبر أمره ..

* * *

١٤

حين زار الحاج حامد سعدون في بيته بادره سعدون بقوله :
— أعرف فيم جئت .
— مؤكد .

— أليس العقاب قاسيا ؟

— بل أقل كثيرا مما ينبغي ، لقد أعطيت هذا الولد أربعين فدانا
يكسب منها الآن أكثر من ستين ألف جنيه ، أما كان ينبغي أن يحط
في عينه حصوة ملح ويعطيني أنا وأمه عشر ما يكسب من أرضي ؟
وصمت سعدون وأطرق لا يجد ما يقول .

— والألعن من الفلوس .. الابن الذي يجحد أبويه حتى لو لم
تكن الأرض أرضهما ، ماذا يساوي في الحياة ؟ أنا فقدت هارون
فهو إنسان ... واستغفر الله أن يكون إنسانا ، هو كيان غير
بشرى ليس له قلب .. والذي لا يعرف كيف يعامل أبويه لا
يعرف كيف يعامل أبناءه .

— ١٤١ —

— هون عليك يا حاج حامد .

— أنت الذى جعلت الحياة مقبولة منى ، فلولاك لأصبحت

الدنيا بلا معنى .

وأى معنى يمكن أن يكون للحياة إذا خلت من عظماء

أمثالك .

— أرجوك يا حاج حامد ، أنا لم أصنع إلا ما يجب أن يصنعه

الإنسان ..

— لقد صنعت صنيعا لا يمكن أن يطالبك به أحد ..

ويقول سعدون فى خجل .. وكأنه يعتذر :

— المسألة أهون من هذا ، لقد رأيت أننى كان ينبغي لى أن

أقدم لحميدة ابنتى مبلغا يعينها على الحياة مثلما يفعل الآباء كلهم فى

أيامنا هذه ، ولكنى وجدتها فى غير حاجة إلى ..

ويكمل الحاج حامد ..

— فحولت المبلغ إلى أبى زوجها الذى ما زال ابنه على قيد

الحياة ، والذى اعطاه أبوه أربعين فدانا ، والذى أصبح اليوم من

أكبر اغنياء مصر وربما من أكبر أغنياء الدنيا .. هل تقدر الأم الذى

أشعر به ؟

— ١٤٢ —

— طبعا ..

— لا .. وأرجو الله ألا تراه أبدا .. ولكنى يا سعدون رجل لم
أترك فرضا وليس لى فى الدنيا إلا هارون ، فلماذا يعذبنى به الله هذا
العذاب ؟ .

— سبحان الله يا حاج حامد ، إن الله هو الذى يحاسبنا ولسنا
نحن الذين نحاسب الله . ومن أدراك ماذا يعد الله لك من خير فى
الدنيا والآخرة ؟ إن للسماء عدالتها الخاصة بها وليس من حق
البشر أن يحاسبوها .

— أستغفر الله العظيم ، والحمد لله سبحانه على كل ما أعطى
وما لم يعط .. أستغفر الله .. الغرض ..
— أى غرض ؟

— كيف أشكرك ؟

— بأن تنسى الأمر تماما ..

— هيهات ... إن معى الآن مبلغا ضخما من المال ..

— وماذا تريد أن تقول ؟

— أعلم أنك ستفرض منى أن أرد دينك .

— وما دمت تعلم هذا فقيم تتكلم ؟

— ١٤٣ —

— سأرد دينك رغم أنفك ..

— كيف .. أيمكن هذا ؟

— نعم .. اقرأ هذه الورقة ..

وقدم إليه وزقة نظر فيها سعدون وبدت الدهشة على وجهه ..

— ما هذا ؟

— لا تندهش ..

— قيراطين أرض باسمي في قريتنا .

— نعم .

— ما معنى هذا ؟

— معناه أنني اشتريت الأرض في بلدك للبناء ، فأنا أعلم أنك

بعت أرضك كلها وأرض زوجتك ولم يعد لك في بلدكم شيء ،

ولكني أردت أن أجعل صلتك بها أكرم صلة ..

— كيف ؟ ..

— سأبنى في هذين القيراطين جامعا باسمك ..

وظفرت الدموع إلى عيني سعدون ، وقال وهو يجيش

بالبكاء ..

— هذا أكثر مما أستحق ..

— ١٤٤ —

— وهل نتحاسب ؟

. — هذا أكثر مما استحق ..

— أتعرف الكلمة التي يقولها الناس شكرا لله ؟ لا لقد أردت

أن أقولها بهذا المسجد الذى أبنيه باسمك ..

ومع البكاء الذى راح يعلو من سعدون لم يستطع أن يقول

شيئا ، وقام الحاج حامد :

— السلام عليكم ورحمة الله .

* * *

١٥

لم يستطع حامد أن يكمل حديثه مع سعدون في يومه هذا ،
فتركه وذهب إلى الفندق الذى يقيم فيه هو والحاجة توحيدة . بعد
أسبوع عاد إلى سعدون الذى بادره قائلا ..

— أتعرف ماذا صنعت لى ؟

— أنا ؟؟ أنا لا أصنع بك إلا الخير كل الخير .

— هو ذاك .. لقد أحسست بما صنعته أنت أن الله غفر لى ما
تقدم من ذنبى وترك لى الحرية فيما تأخر .. أرجو أن أكون كفئا
للأمانة ..

— أنت كفء لها إن شاء الله .

— لم أتصور أن يقام باسمى مسجد وأظن أنا شاربا للخمر ..
— الله أكبر ..

— منذ تركتني لم أذق نقطة خمر ولم أترك فرضا ..

— اللهم لك الحمد والشكر ..

(بريق فى السحاب)

— ١٤٦ —

— وسأسافر إلى الخارج في أمريكا لأنظف دماي مما لوثته بها
من خمور .

— على بركة الله . المهم .. لقد جئتك اليوم في أمر يهمني
ويهمك ..

— أنا إرادتك عندي أمر .

— قم واطلب زوج ابنتك الدكتور أمجد .

— وهو كذلك ، ودون أن أعرف فيم تريده .

وقام سعدون إلى التليفون ، ووجد أمجد بالبيت فطلب منه أن
يأتي إليه .

وما هي إلا بضع دقائق حتى كان أمجد معهما ، ويقول الحاج
حامد :

— لم أشأ أن أفتح سعدون بك في هذا الأمر إلا أمامك ..

وقال أمجد :

— أنا تحت أمرك يا عم الحاج ، فإني أكن لك كل احترام ..

— أريد أن أزوج ابنتنا شهاب من ابنتنا هناء .

وأرتج على دكتور أمجد ، وقال سعدون بعد ريث تفكير :

— يا أمجد إن شهاب لم يصنع إلا ما يصنعه شباب كثيرون ،

— ١٤٧ —

وسوء حظه هو الذى كشفه .

وقال دكتور أمجد :

— كلنا خطاءون ، ولكن ألا نترك فرصة للزمن لننسى ..

وقال الحاج حامد :

— عقاب الزانى غير المحصن يختلف عن حد الزانى المحصن ..

هل سأعلمك الشريعة يا دكتور ؟

— البشر لهم عاداتهم وقيمهم الخاصة ، وهى لا ترتبط بالحدود

الشرعية ..

وقال سعدون :

— اذكر قول المسيح .

وقال دكتور أمجد :

— لا أستطيع أن أرميه بحجر ، فكلنا خطاءون .

وقال الحاج حامد ضاحكا ..

— أنت كنت فى أوربا ، أتريد أن تقول لى إنك كنت فيها

ملاكا من السماء ؟

وضحك دكتور أمجد وأكمل الحاج حامد :

— نعم أضحك .. والله لو حلفت لى إنك لم تخطيء فى أوربا

— ١٤٨ —

ما صدقتك ..

وضحك ثلاثهم وقال سعدون :

— أعرفت هناء بالحكاية ؟

وقال دكتور أمجد :

— وهل كان يمكن أن تخفى عنها ؟

وقال سعدون :

— وماذا كان تعليقها ؟

وقال دكتور أمجد :

— ابتسمت وقالت مسكين .

وناقشتها فيم تقول مسكين ؟ قالت : لقد انكشف شهاب هذا

كل ما في الأمر ..

وقال الحاج حامد في سعادة :

— زادها الله عقلا .. هيه ماذا قلت يا دكتور أمجد ؟

— من جهتي أنا لا مانع .

وقال الحاج حامد :

— ١٤٩ —

— طبعا تسألها وتسأل خالته أيضا ..

قال سعدون ..

— طبعا خالته ستكون سعيدة ، ولكن اسمع يا أمجد ، اترك

هنا لأسأها أنا ..

— أمرك .

* * *

١٦

أَيكون هذا حبا .. ومن أين لى بالحب وأنا لم أحس به إلا من
أمى . أتزانى أعرف الحب .. كل كائن حى يعرف الحب حتى
الحيوانات .. ولكن هل حبى من ذلك النوع العاصف الذى لا
يبقى ولا يذر .. هل هو هذا الحب الذى يجعل الإنسان قد تحول
إلى نبض قلب ووجيب فؤاد بلا تفكير ولا تدبر .. لا أظن . كل
ما أعرفه الآن أننى أريد أن أتزوج إلهام وأنها خير من يصلح لى ..
ولماذا لا ؟ أما حبى فقد بحث به لها ولم أجد منها استنكارا ولا
رفضاً وفى أول لقاء ..

— إلهام ؟

— نعم .

— أريد .:

— قل ماذا تريد ؟

— أن نتزوج .

— ١٥١ —

— أكذب لو قلت لك أنك فاجأتنى .

— إذن ؟

— ألم تتعرف على جوائى بعد كل هذه المرات التى قابلتك

فيها ..

— إنه زواج . أن نصبح روحا واحدة فى جسدين متلاصقين . الأمر لا يصلح معه التعرف إنما لا بد من التأكد .

— ولكن آباءنا تزوجوا بالأذن وحدها ، وربما تزوج بعضهم بالأذن والعين ، فما كانا ليلتقيا قبل الزواج وما كانا ليتعارفا ..

— ربما تقصدين أجدادنا ، أما آباؤنا فقد أدركوا عهد

التعرف ..

— ربما .

— لم تحببى .

— بل أجبت .

— أريدها صريحة .

— أنا موافقة .

— الجديد فى عهدنا أن آخذك بين ذراعى وأناال قبلة ..

ولم ينتظر إذهنها ..

— ١٥٢ —

رأى من الطبيعى أن يفتح أمه قبل أبيه ..

— ماما .

— هيه .

— أريد أن أتزوج .

— هكذا .. أنت وشهاب فى وقت واحد .

— هل هناك مانع ؟

— بالطبع لا .

— إذن ؟

— طبعا تعرفت على العروس ، وأغلب الأمر اتفقتما .

— هل عندك مانع ؟ .

— أبوك رآنى مرة واحدة قبل الزواج ، ولم يسألنى رأى .

— هذا أبى .. إنه أمر يتفق تماما مع أخلاقه .. لقد تزوج بعقله

وحده وبالنفع الذى سيعود عليه من الزواج بك .

— ولد .. أهذا أسلوب تتكلم به عن أهلك ؟

— أنا أصفه .. هل عيب أن أصفه ..

— اسكت .. أسكت أحسن قل لى من عروسك ؟

— لا أظن أنك تعرفينها .. فقد كانت زميلتى فى الكلية

— ١٥٣ —

وليست من بنات أصدقائكم ..

— عرفنى بها ..

— أتعين أن تريها ؟

— قل لى أولا من هى وابنة من ، وبعد ذلك أذهب أنا

لأراها ..

— اسمها إلهام وجدى ، هل يعنى لك هذا الاسم شيئا ؟ ..

— طبعا لا ، إلا إذا أخبرتنى من وجدى هذا .. وما يعمل

.. و ..

— لا .. لا .. اطمئنى تماما من هذه الناحية ، فإنها من أسرة

جديرة بكل الاحترام . وأبوها موظف كبير ، وجدها من كبار

الأغنياء .. طبعا هذا الغنى يهم أبى كل الأهمية .

— إذن فعلى بركة الله .

وحين جاء هارون عرف من حميدة رغبة ابنه ، وسأله :

— من وجدى والد إلهام يا فائق ؟ ..

— اسمه وجدى زين الدين ، وجده ..

وفوجيء فائق بأبيه وقد أصبح إنسانا آخر . تقلص وجهه

وعلت الكشرة ملامحه وعلا نبض قلبه حتى ليكاد فائق أن يسمعه ،

— ١٥٤١ —

وصاح يابنه :

— تقول من ؟

— وجدى زين الدين .

— ابن عبد المجيد زين الدين ؟

— نعم .

— ألم تجد فى الدنيا كلها إلا حفيدة عبد المجيد زين الدين ؟

— وما عيب وجدى زين الدين يا بابا ؟

— أبوه يطيق العمى ولا يطيقنى .

— لماذا ؟

وصمت هارون .. وماذا يقول .. فكر قليلا ثم قال :

— خصومات قديمة فى السوق .

— وهل هذه الخصومات تحول بينى وبين زواجى بحفيدته ..

— نعم أنا أرفض .. لن أطلب من ابن عبد المجيد زين الدين يد

ابنته ولو انطبقت السماء على الأرض ..

أحس فائق فى هذه اللحظة أنه إذا كانت رغبته فى الزواج من

إلهام رغبة عابرة ليس يفجعه ألا تتم ، فقد أصبحت الآن رغبة

عارمة لا بد لها أن تتم . فليس أبوه عنده بالشخص الذى يثق فى

أسباب خصومته أو صداقته فهو عنده ظنين . علاقاته جميعها تعتمد على المال وحده ، ولن أجعل المال يتحكم فى رغباتى أنا الآخر وأصبح نسخة أخرى من أبى الذى لم أر منه أنا وأخى لحظة اهتمام بأمورنا . ولولا أن الله أراد لنا الفلاح ما فلتحت ولا فلتح شهاب .. ما رأيك يا هارون بك أننى لن أتزوج إلا من إلهام مهما يكن رأيك فى جدها ومهما تكن علاقاتك به .

وكان وجه حميدة شاحبا فقد أحزنها ما فعله زوجها ، وأحسست فى عيني فائق إصراره أن يمضى فى طريقه غير عالى برأى أبيه . وقام فائق وقصد إلى حجرته مغضبا ، ونظر هارون إلى زوجته .

— فى ملايين الأرض كلها لم يجد إلا حفيدة عبد المجيد زين الدين ..

— يا هارون أنت خصومك فى السوق كثيرون ، وحرام أن تصنع بالولد ما صنعت ..

— أموت ولا أذهب إلى بيت عبد المجيد زين الدين .

— أليس لأبنائك أى حق عليك ؟

— أليس لى أنا أى حق على أبنائى ؟

— ١٥٦ —

— متى سألت عنهم حتى يكون لك حق عليهم ؟

— هل أخرت عنهم شيئاً ؟

— أولادك غيرك يا هارون .

— ماذا تقصدين ؟

— المال عندهم ليس كل شيء .. متى أحسست بهم ؟ متى

همك أمرهم ؟ حتى حين كان واحد منهم يمرض لم تكن تعنى

به ..

— ألا أحب أولادى ؟ ..

— هارون ربما كانت هذه أول مرة أسمع منك فيها كلمة

الحب ..

— أعوذ بالله .. إلى هذا الحد ..

. — لو عرفت الحب ما كنا اليوم فى هذا البيت .

وعلت حمرة الغيظ وجه هارون وأطرق هنيئة ، تذكر فيها كل

ما كان منه نحو أبيه وما كان من أبيه نحوه ، وقام عن مجلسه متجها

إلى غرفته ، وانحدرت بعض دموعات من عيني حميدة جففتها ثم

قامت إلى التليفون وطلبت أباها ..

— بابا هل أنتم فى البيت بعد الظهر ؟

— ١٥٧ —

— أنا موجود ولا أدري إن كانت والدتك ستخرج أم لا ..
— أنا أريدك أنت .
— أهلا وسهلا .

* * *

روت له ما وقع من هارون ، وحين بلغت من القصة اسم عبد
المجيد زين الدين صاح سعدون ..
— قلت من ؟
— عبد المجيد زين الدين .. أتعرفه ؟
— سبحانك يا رب وما أعجب تصريفك ! اغفر يا رب !
— ماذا يا أبى ؟
— طبعاً رفض هارون .
— منذ سمع اسم عبد المجيد هذا .. أهو رجل سيئ يا بابا ..
— بل من أحسن الناس وأشرفهم وأكرمهم وأكثرهم محافظة
على كرامته ، وبينى وبينه حب كبير وتقدير متبادل ربما من
الصعب أن يكون بين اثنين فى الدنيا .. إنه من أقرب الناس إلّى وأنا
من أقرب الناس إليه ..
— صحيح والنبي ؟

— ١٥٨ —

— صلى الله عليه وسلم .. بل أقل من الصحيح . إنه بالنسبة
لى أكثر من أخ ..
— شرح الله قلبك يا بابا ، وربنا يقيقك ويطيل عمرك .
— اذهبى إلى بيتك ولا تفتاحى هارون فى شىء .. واتركى
الأمر كله لى ..

* * *

أدرك هارون فيم يريده حموه حين طلب إليه أن يمر به ، ولم
يكن مرتاحا إلى هذا الاستدعاء ولكنه لم يستطع أن ينكص عن
الذهاب إليه . وقال سعدون :
— أمرك عجيب يا هارون ..
— حسبت أنك أول من يجد لى العذر فى رفضى أن يتزوج فائق
من حفيدة عبد المجيد زين الدين ..
— يا أخى أنت الذى اعتديت عليه .
— ليس المهم من المعتدى .
— أعرفك أنك ليس لك فى الشعر ، ولكن يحضرنى بيت لعزیز
أبماظه لا بد أن أرويه لك يقول :
وبغوا فلما قلت يا نفس اصبرى غضب الظلوم وعوتب المظلوم

— ١٥٩ —

- أتخسب أن عبد المجيد سيرضى عن هذا الزواج ؟
— هذا ليس شأنك .
— أعرف ما بينكما من حب ..
— فاترك الأمر لى ..
— كل ما أرجوه منك ألا أحضر الفرح .
— كيف هذا ؟ .. وماذا يكون موقف عائلة العروس ؟
— الحقيقة الموضوع كله ثقیل على نفسى .
— اسمع ، ما رأيك أن نزوج الولدين فى يوم واحد ؟
وفكر هارون لحظات ثم قال :
— ولم لا والله فكرة .. ولكنى لا أريد أن أسلم على عبد
المجيد ..
— يا سيدى ولا يهملك ، وما أظن أنه سيحرص على السلام
عليك ..
— إذن نتوكل على الله ..

- طلب سعدون التليفون وأجابه عبد المجيد زين الدين ..
— هل أنت خارج أم ستبقى بالبيت ؟

— ١٦٠ —

- أنا تحت أمرك ، أتحب أن أجيء إليك .
- لا ، فى هذه المرة لا بد أن أجيء أنا إليك .
- أهلا وسهلا ..
- الآن ..
- أهلا وسهلا ..

* * *

- الكلام الذى سأقوله أقوله بما بيننا من حب ..
- خيرا إن شاء الله .
- أنا الآن مدين لك بما صنعت معى ..
- أستغفر الله ، بل سأظل أنا مدينا لك طول عمرى .
- لا داعى أن نتعازم على الديون .. فلكل منا تقديره الخاص
- بما صنع الآخر .. أنا أقدر أننى أن المدين لك ، وقد جئت لأزيد
- من مقدار هذا الدين أضعافا مضاعفة .
- أنت تأمر فى مالى وأبنائى كيف شئت .
- أتمسك بكلمة أبنائك هذه .
- لييك .
- أريد ابنتك إلهام ..

— ١٦١ —

- تقصد طبعا حفيدتى .
 - شوقى قال عن الحفيد ولدته مرتين .
 - تعبيرا جميل .
 - إنه شوقى .
 - لمن تريد إلهام ؟
 - جئنا للأمر الصعب .
 - ليس معك أمر صعب .
 - لحفيدى الذى ولدته مرتين .
 - يا ساتر يا رب .
 - ألم أقل لك ؟
 - طبعا لو كان المقصود ابن وجيدة ما احتجت إلى هذه المقدمة الطويلة .
 - ليس هذا بغريب عن ذكائك .
 - أترضى لى أن ازوج ابنتى من ابن هارون ؟
 - لا . ولكن أَرْضِ لكَ أن تزوج ابنتك من حفيد سعدون ..
 - غلبتنى . لقد أقسمت ألا أمد يدى لهارون أبدا .
- (بريق فى السحاب)

— ١٦٢ —

— .. أنا البذى سأقرأ معك الفاتحة ..

— وأبلغه أننى لن أصافحه ..

— من هذه الناحية لا تخف ..

— توكلنا على الله ..

— نقرأ الفاتحة ..

— ألا أسأل الأب والأم والعروس ..

— أما عن العروس فهى زميلة فائق فى الكلية ، ولا بد أن

الأمر بينهما مستقرة فى أمان الله .. أما الأبوين فهذا حقل

وحقهما ولو أننى أعتقد أنهما لن يمانعا مادمت أنت قد وافقت ..

— أنت على حق ، ولكن من ناحية الشكل أنت تعرف أبناءنا

فى أيماننا هذه يحبون أن يشعروا أنهم أصحاب الأمر والنهى فى

بيوتهم .

— أفوت عليك بكرة ..

— هل أنت متعجل ؟

— يا رجل يا طيب ألا تعرف من المتعجل ؟

— أهلا بك بكرة إن شاء الله ..

* * *

اقيم الفرح للأخوين وحرص كل من زين الدين وهارون ألا يتصافحا ، ولم يلحظ أحد ما بينهما من جفاء إلا العالمون بما بينهما من خصومة . وانقضت الليلة على أحسن ما تكون ، وحضر الفرح بإلحاح من الحفيدين الحاج حامد والحاجة توحيدة . وبالطبع كانت هناك شقة فاخرة لكل من العروسين اختارها الأخوان وزوجتهما في عمارة واحدة لم يذهبا إليها بعد الفرح ، وإنما سافر شهاب وهناء إلى باريس لقضاء شهر العسل ، وسافر فائق وإلهام إلى جنيف ، وقد كان هذا أول سفر لأربعتهم إلى خارج مصر .

* * *

١٧

عاد الأعراس إلى القاهرة بعد شهر العسل ، وبدأت الحياة تأخذ مجراها الطبيعي بين كل من الزوجين وحمدوا جميعا ما وفقهم الله لهم من اختيار . وتجاوز كل منهم الأيام الأولى ذلك الاختلاف الذى تتضح معاملة مع الحياة الجديدة ، ووجد كل من الأعراس الأربعة أنه قريب فى خلقه وتفكيره مع شريكه أو شريكته .. فقد كان كل من الأربعة رضى الخلق سمحا لا يحب التعقيد .

وكان من الطبيعى أن تكون الحياة بين هناء وشهاب أكثر يسرا فكل منهما يعرف الآخر منذ ولد ، فما بعجيب أن تتفق بينهما الميول والمآرب والرغبات .

أما فائق وإلهام فقد وجدا بعض الصعوبات فى الأيام الأولى ، ثم ما لبثت الحياة أن لانت بينهما وتجاوز كل منهما عما لا يتفق وعاداته فقد كانت المبادئ الأساسية فى خلق كل منهما واحدة . عاد الزوجان والزوجتان سعداء جميعا . وبدأ شهاب يعمل

— ١٦٥ —

مهندسا فى شركة أبىه كما عمل فائق محاسبا فىها أيضا ، إلا أن
الأخوين حين انفرد بهما المكان فى صالون شهاب الفاخر كان
بينهما حديث ..

— ما رأيك يا شهاب هل سنظل نعمل فى شركة أبينا ؟

— أنا معك .. فأنا لا أستطيع أن أحقق ذاتى فيها .

— ولا أنا .

— نعمل حتى يجد كل منا مكانا آخر يرضيه فأنا لا أحب

الفراغ ..

— نحن متفقان .

وعلى هذا رأى استقر بهما الأمر ، فكان كل منهما يعمل حتى

لا يواجه الفراغ . وكان كل منهما يبحث عن المكان الذى يجد
نفسه فيه .

حملت لإهام ولم تحمل هناء ، ومرت ثلاثة أشهر دون أن

تحمل..، ووجد شهاب أمه تسأله عشرات المرات ..

— هل آن لنا أن نفرح بابن لك أو ابنة كما سنفرح بمولود

فائق .. وأمام هذه الأسئلة المتلاحقة لم يجد شهاب بدا من أن

— ١٦٦ —

يذهب إلى طبيب ليتأكد أن ليس به ما يمنع الإنجاب . وواجهته الحقيقة المريرة .. إنه لا يصلح للإنجاب أبدا ولا يصلح معه علاج ، فإن الذى يعانيه مرض خلقى لا يمنعه من المعاشرة الزوجية الطبيعية ولكن يمنعه من الإنجاب ..

وقع الخبر على شهاب موقعا عنيفا .. وعاد إلى البيت وهو يجاهد نفسه جهادا شاقا ألا يبدو عليه ما يعانيه من ألم .. سبحانه ربي لماذا أكون شجرة جافة بلا ثمار ؟ حسبي الله ونعم الوكيل ! ادعى الإجهاد وذهب إلى فراشه وكأنه سينام ، ولكن النوم لم يمس جفونه طول الليل ، وهناء تحس أنه يعاني شيئا يخفيه . وفى الصباح ترك فراشه مبكرا وأحست به هناء فلحقت به ، وعلى مائدة الإفطار سألته :

— ماذا بك يا شهاب ؟

— ما رأيك أن نزور جدى فى البلدة إننا لم نزره منذ رجعنا من باريس .

— لا مانع عندى ، ولكن لماذا لا تقول لى ماذا بك ؟ لا تقل الإجابة البلهاء لا شيء .. فإن يكن زواجنا منذ شهور فإن معرفتى بك منذ بدأنا نعى ما حولنا أنا وأنت ، فأنت ابن خالتى ..

— ١٦٧. —

— حين نعود من عند جدى سأخبرك .

وسافرا إلى الحاج حامد ، ورحب بهما الجدان ترحيبا شديداً . وأدرك الحاج حامد أن حفيده يعانى مأساة يحاول أن يتكتمها . فما إن خلت بهما حجرة الاستقبال حتى نظر الجد إلى حفيده نظرة طويلة أدركها شهاب وقال ..

— نعم .

— فقل ما بك .

— أنا عاجز عن الإنجاب ..

— عاجز عن الإنجاب أم عن المعاشرة الزوجية .. آه نسيت

أنت طبعا غير عاجز عن المعاشرة ..

وابتسم شهاب فقد أدرك أن جده تذكر حادثة الآداب التي

مر بها ، وقال شهاب :

— الحيوانات الصالحة للإنجاب معدومة تقريبا ..

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأطرق الحاج حامد قليلا ثم قال :

— أكان يسعدك أن تأتى بابن يصنع بك ما صنعه أبوك ؟

— أنت تعرف يا جدى أننى موفور المال والحمد لله ..

— ١٦٨ —

— وهل يتمثل الجود فى المال فقط يا شهاب ؟

وصمت شهاب قليلا ثم قال :

— لا .. طبعا ..

— لا أحد يعرف أين السعادة ، وإن يكن سبحانه قال :

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ فهو سبحانه أيضا قال ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴾ الله وحده يعرف برحمته أين يكمن الخير لعباده .

— فإذا رضيت أنا فما ذنب هناء .

— أخبرها وخيرها .

— طبعا لن تقبل الطلاق من أجل هذا .

— هذا هو الأغلب ..

— هل أطلقها ؟

— وهل دخلت إلى قلبها لتعرف أى الأمرين أحب إليها أن تبقى

معك بلا أولاد أم تتزوج من غيرك لتنجب .. ألا يجوز أن يكون

طلاقك لها أشد مرارة عندها من عدم الإنجاب ؟

— وكيف أدرى ؟

— تدري من معاملتها لك ومعاملتها للحياة ، فاصبر

— ١٦٩ —

ولا تتعجل .

— أمرى إلى الله .

وفي الطريق إلى القاهرة خطرت برأس شهاب فكرة أنس إليها
ووجد فيها الخلاص من حيرته .. حاولت هناء أن تعرف منه ما
يشغله ولكنه أصر على الكتمان ولم تفز منه إلا بجملته واحدة وهما
يقتربان إلى القاهرة . بعد أن ومضت هذه الفكرة في خاطره
واطمان إليها .

— بعد وصولنا بساعة ستعرفين كل شيء .

بلغا القاهرة وأنزل الخدم الحقائق وقال لها شهاب :

— سأذهب إلى مشوار سريع وأعود حالا ..

ما هي إلا بعض الساعة حتى كان شهاب جالسا مع زوجته ،

وصمت قليلا وهي تتحرق شوقا لتعرف ما يعانیه زوجها ..

— أخرج شهاب من جيبه ورقة وأعطائها هناء وهو يقول :

— اقرئي هذه .

وقرأت وتولاها الدهول ..

— ما هذا ؟

— ١٧٠ —

— ألم تقرئى ؟

— لماذا ؟

— لأنى عرفت من الطبيب أننى غير قادر على الإنجاب .

— ومعنى هذا أن تكتب هذه الورقة .. ألا تسألنى ؟

— أعرف ما ستجيبين به .

— إن تصرفك تصرف فارس شريف ، وأنا أقبل ما صنعت

لسر واحد لا تعرفه أنت ، وأعرفه أنا لأنى درست القانون ..

— ما هو هذا السر ؟

— أن إعطاء العصمة لى لا يمنعك حقلك فى الطلاق أنت أيضا

حين تشاء . فأنت لم تتنازل عن حقلك فى الطلاق كما يظن عامة

الناس وأفلام الشاشة ، وإنما معناه فقط أنك أشركتنى معك فى

الاختيار .. أنت رجل عظيم .. ووظف فى الأولاد .

وطفرت دمعتان من عينيها استقبلهما بكاء على النشيج من

شهاب كأنه يطلق به كل ما عاناه فى هذه الأيام . وقامت الزوجة

واحتضنت زوجها وراحت تربت ظهره فى حب وحنان وكأنها

تعلن إليه إصرارها على الحفاظ عليه .

* * *

١٨

كان يوما مشهودا يوم ولادة إلهام . فقد كانت الولادة متعسرة
ولم يكن الطبيب قد جاء بعد ولم يكن بالمستشفى الخاص الذى تلد
فيه طبيب متخصص . ودق التليفون فى المستشفى ليعلمهم طبيبها
أنه فى القبة وليس لديه سيارة ولا يستطيع العثور على سيارة أجرة
ودون ريث تفكير قام فائق ..

— أنا ذاهب إليه ..

وأسرع إلى سيارته ..

إنه الأجل المحتوم .. كانت اللحظة التى قدرها الله لصعود
فائق إلى السماء ترتقبه فى الطريق .. كيف ؟ لا يهم .. إنها حادثة
مثل كل الحوادث التى يلاقى فيها العباد ربهم ..

نزل الخبر على الجميع كما ينبغى. أن ينزل ... إنها الفجعة التى لا
ينتظر أحد أنها ستنزل به وهى أقرب إليه من حبل الوريد .. إنها

المصيبة التى يظن الناس جميعا أنها قد تقع للآخرين ولا يمكن ولا ينبغي ولا يجوز أن تقع بهم .

* * *

عرف هارون الحزن كما لم يعرفه فى حياته قط واضطربت به الحياة حتى لقد زهد فى المال وهو المال . ومرت به أيام لا يدرى عنها إلا أنها طويلة طويلة لا تنتهى . قابع هو فى بيته لا يريد أن يرى إلى أعماله وأمواله ، ولا يشتهى أن يسمع عنها ذكرا .

وفى يوم صبحا من الفجر بعد نوم هالع كتيب ، وركب سيارته وقال لسائقه ..

— اذهب إلى أبى فى البلدة ..

* * *

وحين استقبله أبوه ارتمى بين أحضانه باكيا بكاء مريرا فيه اعتذار وفيه حزن وفيه رجاء جار بطلب الغفران ، وظل على حاله فترة لا يدرى أطالت أم قصرت . والحاج حامد تنهمر من عينيه الدموع وهو يربت ظهر ابنه لا يدرى أهو بهذه الدمعات يبكي حفيده الذى مات أم يبكي ولده الذى عرف الفجعية فى معناها السفاك القاتل ، أم يبكي أيامه هو التى طالت حتى تشهد ما

— ١٧٣ —

يشهده في هذه اللحظات ..

وحين استقر بهما المقام تبين هارون أن سعدون كان قد سبقه
إلى أبيه ووجد الدموع على خديه سجاما وصمت ثلاثتهم .. ثم
تكلم سعدون أخيرا ..

— لقد أسمت إلهام الولد حامد .

وبكى الأب والجد ثانية وقال سعدون :

— لكل سحاب حزن بريق أمل يا حاج حامد .

— الحمد لله .

— يا حاج حامد أنت تستحق أن يكرمك الله ، وقد أكرمك

بأبن لحفيذك ومن يدرى ماذا يدخر لك في السماء؟

وجمع حامد نفسه ليقول في أسى وامثال لأمر الله .

— الحمد لله .. الحمد لله على ما أخذ ، والحمد لله على ما

أعطى ..

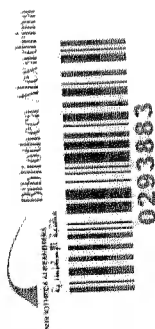
تمت

تمت بحمد الله في الساعة ٢،١٠ من يوم الثلاثاء ١١ فبراير ١٩٩٢ بمكتبي بمجلس

الشورى .

رقم الإيداع ٧١٧٤ / ١٩٩٢
الترقيم الدولي 3 - 0762 - 11 - 977

مكتبة مصر
٣ شارع كائن صدقي - الفيحالة



الشمس ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه